قصص من التاريخ

١

الدين الحق

الدكتور
محمد حسن الحمصي

جواد سبيعي

دار الرشيد
دمشق - ص.ب ٢٤١٢

قصص من التاريخ

— ١ —

الدين الحق

الطبعة الرابعة

يقول الشيخ جمال الدين :

« نعم قد يكون الكلب أغلى منا ثمناً لو أننا لم ندن بالدين الحق »

نقلاً عن « سير توماس آرنولد »

محمد حسن الحمصي

الإهداء

الى والديّ العزيزين

الذين ضحيا براحتيهما من أجلي . . وبذلا من وقتيهما ليوفرا لي السعادة .

الى الوالدين الحبيبين

الذين ربياني فكان لهما الفضل . . وأخذا بيدي في دروب الحياة ومسالكها الوعرة .

الى من غمراني بفضلهما ..

أتقدم بكتابي هذا . .

ولدكم

محمد حسن

رسالة

من صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ أحمد المحاميد

إلى الأخ الصديق المؤمن أبى عدنان حفظه الله ورعاه

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد فإنه يطيب لي أن اتحدث إليكم بهـــذه الكلمة الموجزة ، المعبرة عما أكنه لشخصكم الكريم من حب وتقدير وإعجاب

عرفتك من قبل يوم ، كانت تجمعنى بك مناسبات عامة ، فكنت أرى فيك تلك الروح المؤمنة ، والشخصية الجذابة التي تدع من يراك يألفك من فوره ، وهـــذه صفة المؤمن الحق ، فإنه « أليف مألوف » كما يشير إلى ذلك الرسول الكريم صلوات الله عليه .

ثم صحبتك يوم كنت مديراً للثانوية الشرعية بدمشق ، فرأيت فيك الادارة الحازمة بلطف ، والتنظيم المعتبر بإحكام ، والهدوء المعبر عن الثقة .

ثم قرأت لك فلمست فيما كتبت العلم الواسع ، والفكرة

الثاقبة ، والهدف السامي ، والقصد النبيل ، والإخلاص لله ...

وإن فيما كتبتَ عن « النحلة .. » وما أودع الله عز وجل فيها من إلهامات ، وترتيبات ، وعجائب ، وتنظيم ؛ يدل بوضوح على مصداق الآية الكريمة في قول الله تعالى : « أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » .

إن فيما كتبت عن هذا المخلوق الصغير الكبير لبرهان على نبل القصد ، وصدق الإخلاص .

وإن فيما كتبت في هذه السلسلة من القصص التي أحسنت فيها الاختيار ، وأجدت فيها السبك لأكبر دليل على سعة العلم ، وسمو الهدف .

وما أجدر الشباب المؤمن الهادف المتطلع أن يقرأ هذه القصص ، ليجد فوق المتعة ، ما يزيد إيمانه ، ويثبت عزمه ، ويزيد ثقافته ، ويدفعه إلى الأمام مستزيداً من العلم والتقوى ، ومتعمقاً بتاريخ أمتنا المجيدة ، وأبطالها في العلم ، والتقوى ، والهدى ، والإصلاح .

إني لسعيد بك أيها الأخ المؤمن ، ومغتبط بحبنا المخلص ، وأرجو المولى الكريم ، أن يجعلنا من المتحابين فيه ؛ وأن يبوّئنا تلك المنزله التي يَغبِطُ عليها الأنبياء ، والشهداء ، وأن يهدي بك ، ويزيدك من فضله .

دمشق /١٩/ ربيع الأول / ١٣٩٣   أخوك

أحمد نصيب المحاميد

بين يدي الكتاب

بقلم صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد بهجت البيطار

الحمد لله الولي الحميد ، الهادي عباده في كتبه وعلى ألسنة رسله إلى دين التوحيد ، والصلاة والسلام على المرسل رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى سائر إخوانه الأنبياء والمرسلين ، ومن تبعهم في هديهم وإحسانهم وإصلاحهم إلى يوم الدين .

وبعد فقد تفضل الأستاذ الكاتب المحقق السيد محمد حسن الحمصي بإيقافي على عدة مولفات قيّمة له ، ومنها كتاب « الدين الحق » الذي جدد طبعه ، لنفاد المطبوع منه ، ولم أكد أمر على صفحات من أوله حتى مرّ بي مانزل بالمسلمين من المغول الذين كانوا أولي قوة وبأس شديد ، إذ اكتسحوا بلاد المسلمين العامرة ، وجعلوها أطلالاً دارسة ، وصحراوات خالية من السكان .

غير أن الشيخ جمال الدين أحد الدعاة إلى سبيل ربهم بالحكمة

والموعظة الحسنة ، اجتاز البلاد ، مع بعض تلامذته قاصدين آسيا الوسطى . وأعلن قصده من سفره بمن معه من الإخوان ، قائلاً : إننا ما خرجنا من ديارنا إلا لنجابه هؤلاء القوم من المغول أولي القوة والبأس .

وكانت نتيجة هذه الدعوة إلى الله ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، أن دخل (١٦٠ ألفاً) من التتار في الإسلام ، وصار هذا الدين دين السكان المتحضرين في الولايات الخاضعة لملك التتار .

ولله در المؤلف الأستاذ محمد حسن ، فان قصده العالي من هذا التأليف الذي سماه (الدين الحق) أن العاقبة للمتقين ، وأن ختام هذه القصة كان مصداقاً لسورة النصر المدنية ، وهي قوله سبحانه : « إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً » وقد نصر تعالى الحق على الباطل ؛ والحكم على أعداء الحق بإعزاز دينه وإظهار كلمته ، وإعلاء أمته ، ويرى القارىء هذا حقاً في آخر هذه القصة من الكتاب « الدين الحق » .

هذا والكتاب كله عظات وعبر وشواهد على أن الانحلال يؤدي إلى الاضمحلال ، وأن دعوة الدين الحق تستطيع أن تتغلب على قوة أعدائها مهما بلغوا من قوة وعدة وسلاح .

هكذا ، هكذا وإلا فلا لا طرق الجد غير طريق المحال

والحمد لله رب العالمين .

محمد بهجت البيطار

مقدمة الطبعة الأولى

شهد القرن الخامس عشر للميلاد مأساة مروعة ، ماعرف التاريخ لها مثيلاً قط .

دمرت ممالك ... وحطمت عروش ...

واقتلعت جذور الخلافة العباسية من منابتها ، بعد أن قتل الخليفة المستعصم بالله خنقاً في بغداد .

وكانت هذه المأساة المخيفة وحدها كفيلة بأن تزلزل أركان العقيدة في النفوس ، لولا أن هذه العقيدة كانت تحمل من القوة على الصمود أكثر مما يحمل الغزاة من قوة على الفتح والتدمير !

بل إن هذا الدين استطاع أن ينتصر على أعدائه ، ويطوعهم لإرادته في نفس الوقت الذي كان فيه هؤلاء الأعداء في أوج انتصاراتهم العسكرية !!

لقد استطاع ذلك الدين أن يهزم المغول في مضمار العقيدة في ذات الوقت الذي كانوا فيه يملؤون الدنيا رعباً وفزعاً ، وفي

ذات الوقت الذي كانت فيه جيوشهم الجرارة تنتقل من نصر الى نصر ، وأكاليل الغار تعقد على هاماتها !!

وفي هذه الأيام الحالكة السواد ،التي ادلهمت فيها الخطوب على أمتنا من كل جانب ، ما أحرانا أن نأخذ العبرة من التاريخ فنتمسك بذلك السلاح الفعال الذي كان له الفضل العظيم ، يوم أن فشلت كل صنوف الأسلحة والجيوش المدربة !!

ما أحرانا أن نركن الى الدين الذي نصرنا على المغول ، على الرغم من هزيمتنا العسكرية الشنيعة أمامهم !!

ما أحرانا أن نلوذ بالدين الذي كان دائماً سبب عزنا كلما كشرت لنا الأيام عن نابها ، وعبست في وجهنا الخطوب !!

ورحم الله عمر بن الخطاب الذي قال :

« إنكم كنتم أذل الناس وأحقر الناس ، وأقل الناس ، فأعزكم الله بالاسلام ، فمهما تطلبوا العزة بغيره يذلكم الله » .

المؤلف

الدين الحق

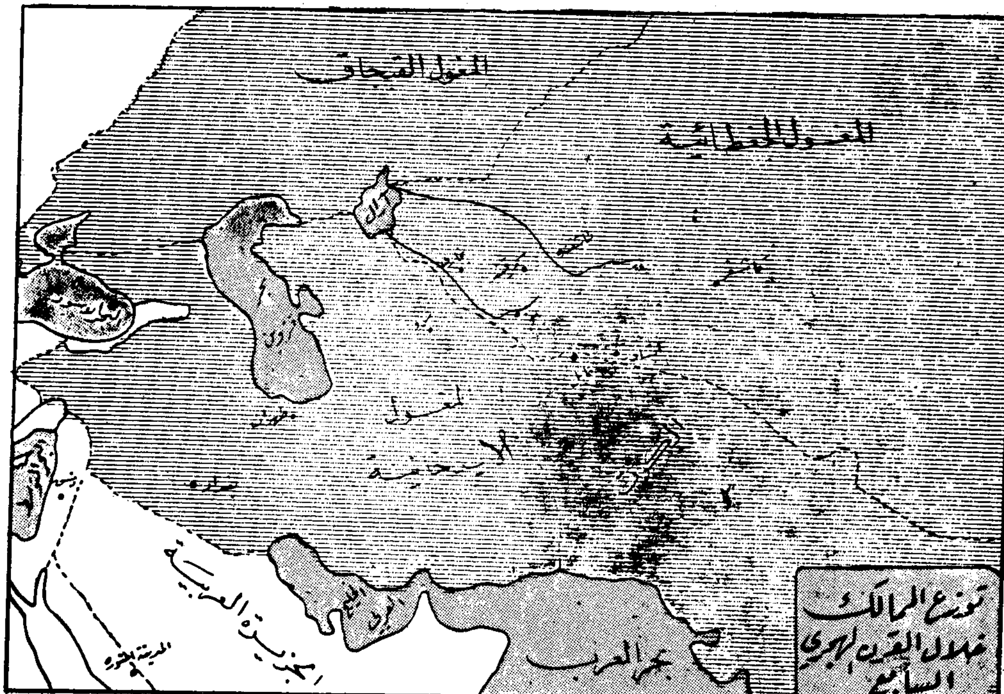
« يقول سير توماس آرنولد :

« ولكن على الرغم من هذه المصاعب ...

أذعن المغول والقبائل المتبربرة التي دانت بدين هذه الشعوب الاسلامية التي ساموها الخسف وجعلوها في مواطىء أقدامهم ...

ولا بـد أن يكون هناك كثيرون من أنصار النبي قد انتشروا في طـول امبراطورية المغول وعرضها ، مجاهدين في طي الخفاء لجذب هـؤلاء الكفار إلى حظيرة الاسلام »

عن كتاب تاريخ الاسلام ج ٤ ص ١٥٣



توزيع الممالك خلال القرن الهجري السابع

مهمة صعبة[1]

منذ خمسة قرون خلت ، كان شيخ وقور يدعى الشيخ جمال الدين يقطع تلك السهوب الواسعة والممار الوعرة، في أواسط آسيا ... وبصحبته عدد من تلامذته ، يتخذون التجارة حرفة لهم ، وما بهم ميل الى الربح المادي ، ولكنهم كانوا يتظاهرون بهذا العمل ، تغطية لمهمتهم الأساسية التي فارقوا أوطانهم من أجلها !

وما كاد الركب يجتـــاز حدود موطنه الأصلي ، بـــلاد بخارى ، ليوغل في سهوب آسيا الوسطى الفسيحة ، حتى وقف

---

(١) من شاء معرفة القصة في أصولها كما رواها (سير توماس آرنولد) فليرجع الى كتابه (الدعوة إلى الاسلام) فانه واجد الأصل بشكل موجز.. وقد حرصنا على وضع العبارات التي نقلناها عنه ضمن قوسين صغيرين .

الشيخ جمال الدين ، والتفت الى من معه ، يحدجهم بنظراته المهيبة ، ويتفرس في وجوههم المؤمنة .. ثم قال :

ـ اعلموا يا إخواني ، أننا ماتركنا بلادنا وأهلينا ، إلا لنقوم بتأدية هذا الواجب الديني الكبير ، الذي ندبنا إليه إسلامنا ، ودعانا اليه ربنا في قوله جل من قائل : « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة** »[1] .

وصمت الشيخ إثر بارقة من التفكير لمعت في مخيلته وكفكف عبرة أبت عليه إلا أن تترقرق في عينيه .. ثم قال :

ـ إننا ما خرجنا من ديارنا إلا لنجابه هؤلاء القوم من المغول أولي القوة والبأس .. أولئك الذين انسابت جيوشهم انسياب الثلوج من قنن الجبال .. فاكتسحت في طريقها بلاد المسلمين العامرة .. وأتت على كل ما كان لها من ثقافات عالية وتقدم باهر .. فتحولت القصور الفخمة ، والحدائق الغناء ، والمروج الخضراء ، إلى أطلال دارسة ، وصحراوات خالية .

ولم يتمالك الشيخ دمعته .. فانسكبت على وجنتيه ، فاخضلت لحيته الخفيفة .. وتحشرج صوته وهو يقول :

ـ لم يكد جيش المغول ينهي أعمال القتل وسفك الدماء في

---

(١) « سورة النحل » الآية ـ ١٢٥ ـ .

مدينة «هراة» ويرحل عنها ؛ ليتابع عمله هذا في المدن التالية ؛ حتى خرج من سلم من أهليها من مخابئهم العميقة في باطن الأرض ؛ التي لجؤوا اليها فراراً من الموت الذى كان يلاحقهم في كل مكان، وكل مخبأ ...

وما أشد حسرة هؤلاء الناجين ،عندما اجتمع بعضهم الى بعض بين الأطلال الخربة ، فرأوا أن عددهم لايزيد على الأربعين شخصاً !!

لقد عرفوا أنهم البقيةالباقية من سكان مدينتهم التي يربو عدد سكانها على مئة ألف نسمة !! ولم يسعهم الا أن يقفوا مهطعين، مقنعي رؤوسهم ، يبكون أطلال مدينتهم ، وقد أخذ الفزع والهلع من نفوسهم كل مأخذ !!

وأجهش الجميع بالبكاء ...

ومن خلال تلك العبرات المنسكبة على وجوه أولئك القوم كنت تلحظ الحنق والغيظ يأكلان أكبادهم ...

بل إنك لتستطيع أن تلحظ الرغبة الملحة في الانتقام تتحرك في أعماقهم ، ولكنها لاتجد لها متنفساً ...

فالجميع يعرفون أن لافائدة ترجى من أية عملية انتقامية ...
وقام أحد الحاضرين يقول :

أجل ياسيدي .. إننا لم ننس ماحدث لمدينتنا « بخارى » التي عرفت على مر الأيام برجال العلم والورع .. وإننا لنذكر جيداً أن المغول اتخذوا من مساجدها المقدسة اصطبلات لخيولهم ، ومزقوا المصاحف ، ووطئوها بدوابهم ، كما سبوا من نجا من الأهلين من القتل .. ثم تركوها بعد أن جعلوها رماداً تذروه الرياح !!

– ووقف آخر يكفكف عبراته المنسكبة ويؤكد على نبرات صوته المختنق حتى يكون حديثه مفهوماً .. ثم قال :

– إن مدينتنا لم تكن أحسن حالاً من غيرها .. وهل نسينا ماحل بمدينتي « سمرقند » و « بلخ » وغيرهما من كبريات المدن التي كانت من قبل كعبة العلوم ، ومواطن الأولياء والصالحين ؟!

وسادت فترة من الصمت جرت خلالها الأحداث سريعة في أذهان القوم ، وكأنها الدوامة .. قد استحوذت على اهتمام الجميع ، فلم تبق لديهم القدرة على الحديث .. ولم تكن ترى شيئاً يتكلم سوى الدموع المنهمرة وكأنما هي تقول : إنه لمصاب فادح !! وأنى لنا أن نستدرك .. إننا لن نرضخ ولن نستكين .. فنحن قوم ماعرفنا ولايمكن لنا أن نعرف الاستسلام للذل .

ومن وسط هذا الجمع الصامت الذين كانت صدورهم تغلي بالحقـــد كالمراجل ، وقف الشيـخ يؤجج نيران تلك النفوس المضطرمة بالأسى فقال :

– لقداستطاع الامام «الفخري » أن يقدم لنا فيما كتب تصويراً معبراً لعملية اقتحام المغول لمدينة بغداد ... على الرغم من أنه كان يعلم أنه يعيش تحت حكم المغول ، فلم يفسح لنفسه أن يكتب كل مايشاء .. وقد ختم تصويره لما حل بمدينة بغـــداد بقوله[1] :

– « فجرى من القتل الذريـع والنهب العظيم والتمثيل البليـغ مايعظم سماعه جملة ، فما الظن بتفصيله »??

وأردف قوله هـــذا ببيت من الشعر يفصح عن مراده ويدع للقارىء المجال لتخيل حقيقة ماحدث فقال :

وكان ما كان مما لست أذكره فظُنّ ظناً ولاتسأل عن الخبر

ولم يكد الشيخ يتم كلامه حتى انطلق أحد الحاضرين الذين أمضّتهم الحرقة ، وجرحت أفئدتهم الأحداث ، يفصّل ماأجمله

---

(١) «تاريخ الاسلام السياسي» جـ٤ ص ١٥٩ نقلا عن «تاريخ الادب في ايران» للدكتور براون .

الشيخ فقال[1] :

– « لقد أعمل جند المغول السيف في رقاب أهل بغداد أربعين يوماً سلبوا فيها أموالهم ، وأهلكوا كثيرين من رجال العلم ، وقتلوا أئمة المساجد وحملة القرآن ، وتعطلت المساجد والمدارس والربط ... وأصبحت المدينة قاعاً صفصفاً ، ليس بها الا فئة قليلة مشردة الاذهان » .

وتحامل الرجل على نفسه في حديثه وتابع يقول :

« وكان القتلى في الطرقات كأنها التلال .. ولما نودي بالأمان خرج من تحت الارض من اختفوا في المطامير والمقابر ، ومن لجأ الى الآبار والحشائش ، كأنهم الموتى ، قد نبشت قبورهم .. قد أنكر بعضهم بعضاً ، فلم يعرف الأب ابنه ولا الاخ أخاه .. ثم انتشر الوباء فحصدهم بمنجله حصداً ذريعاً .. وفسد الهواء .. وعم الوباء »!!

وأطرق الجميع لحظة في صمت مطبق .. ثم رفع الشيخ رأسه يقول :

– لكأني بنهر دجلة الذي يبعد عنا آلاف الاميال ، يرثي مدينة بغداد ومن كان فيها ..كما يندب ما آل اليه في سالف

---

(١) «تاريخ الاسلام السياسي » ج ٤ ص ١٦٠ : نقلا عن « الحوادث الجامعة في أعيان المئة السابعة » لابن الفوطي .

الايام ، من العلوم والمعارف العالية ، بعد ان خسرتها الانسانية جمعاء ! !

ومن منا يمكنه أن ينسى نهر دجلة الذي اصطبغ ماؤه بالسواد على غزارته ، أياماً طويلة ، لكثرة ما ألقي به من الكتب النادرة ، والمعارف العلمية الغالية .. ولكأنما عبر هذا النهر الأبكم عن حزنه العميق ، بارتداء حلة من السواد ، لم يخلعها سبعة أيام متتالية !!

وتنهد الشيخ جمال الدين معبراً عن حسرة تقطعت لها أنيطة قلوب مستمعيه ، ثم تابع يقول :

ـ ما أشق مهمة المؤرخ الاسلامي،الذي سيؤرخ هذه النكبات الجسام التي حلت بالأمة الاسلامية !!

وان شئتم فاستمعوا الى "ياقوت الحموي" يحدثكم عن أثر هذه النكبة في نفسه ، بعد أن عبر عن أسفه العميق ، وحزنه الدفين ، لتركه مدينة مرو الزاهرة العامرة بمكتباتها ، انه يقول (١) :

« فإنا لله وانا اليه راجعون ، من حادثة تقصم الظهر وتهدم العمر وتفت في العضد ... وتشيب الوليد وتنخب لب الجليد ، وتسوّد القلب وتذهل اللب » .

---

(١) « تاريخ الاسلام السياسي » ج ٤ ص ١٤٦ . عن « تاريخ الادب في ايران » لبراون .

إنه شاهد عيان .. فرّ من مرو الى الموصل ، ليجد لنفسه ملجأ !
استمعوا اليه يقول عن نفسه ، واصفاً حاله ، وما صار اليه من أخطار :

« فحينئذ تقهقر المملوك [1] على عقبه ناكصاً ، ومن الأوبة الى حيث تستقر فيه النفس بالأمن آيسا ... فتوصل وما كاد ، حتى استقر بالموصل بعد مقاساة أخطار وابتلاء واصطبار » .

ثم تابع "الشيخ جمال" الدين حديثه الموجه الى صحبه المتحسرين فقـــال :

— وما أشد وقع هذه الفظائع على نفس كل انسان ، حين يسمعها أو يرويها أو تخطر على باله !

إنه مامن انسان قط على ظهر البسيطة، يسمع بهذه الفظائع، الا ويقشعر بدنه لهولها !

فالعالم المؤرخ المشهور [2] « ابن الأثير قد أخذته نفس تلك القشعريرة حين وصف لنا غارات المغول »... ولكأني به يحدثني عن أثر ذلك في نفسه فيقول :

---

(١) يتكلم ياقوت عن نفسه ويصف حاله وما صادفه من اخطار .

(٢) تاريخ « الدعوة الى الاسلام » لـ سير توماس آرنولد صفحة ٢٤٩ .

ـ « لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها ، كارهاً لذكرها ، فانا أقدم اليه رجلا وأؤخر أخرى ... فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الاسلام والمسلمين ! ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ! فياليت أمي لم تلدني..و« ياليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً »[١] .

«إنها ـ والله ـ للحادثة « العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها ، عمت الخلائق ، وخصت المسلمين ! ! فلو قال قائل : منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم والى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً ، فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا مايدانيها.. ومن أعظم مايذكرون من الحوادث، مافعله «بختنصر» ببني اسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس . وما البيت المقدس بالنسبة الى ماخرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس ؟ وما بنو اسرائيل بالنسبة الى من قتلوا؟ فان أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني اسرائيل ! ! ولعل الخلق لايرون مثل هذه الحادثة »[٢] !

وارتسمت على محيا صحب الشيخ أمارات الاستفسار عن مهمتهم

---

(١) « سورة مريم » الآية ٢٣ .

(٢) «تاريخ ابن الأثير» ج ١٢ حوادث سنة ٦١٧ هـ ص٢٤٣-٢٤٤.

وسط هـــذه الظروف الصعبة التي مافتيء استاذهم يجسدها أمامهم ..
ترى هل يستطيعون وهم القلة القليلة أن يقفوا في وجـــه تلك الجيوش الجرارة ،تلك الجحافل التي ضاقت بها الارض على رحبها ؟؟ انهم لربما لن يكونوا أكثر من لقمة سائغة بيد هذه الجيوش ، بـل ان هذه اللقمة لاتسمن ولا تغني من جوع !

وأدرك الشيخ بثاقب إحساسه مادار في مخيلتهم ،.فتابـــع يقـــول :

ـ أجل .. إننا لن نستطيع مجابهة تلك الجحافل الضخمة ، بل لن يخطر على بالنا ذلك ، بعد اذ عجزت عن مجابهتهـا الجيوش الجرارة .. ولكنني أؤكد لـكم أننا نستطيـع أن نفعل ما عجزت عن فعله جيوش الخلافة العباسية في بغداد . . اننا نملك سلاحاً يمكنه أن ينجدنا في أحلك الظروف وأقساها اذا ما استعملناه بحكمة وتعقل ... وما ذاك السلاح الا سلاح الاسلام !!

ودهش الحاضرون لهذا الكلام .. واستعادوا الى مخيلتهم ما حل من نكبات ببلادهم وبما جاورها من الاصقاع ، مع انهم جميعاً مسلمون !! غير ان الشيخ جمال الدين تابع حديثه يقول :

ـ لاتستغربوا كلامي هذا .. فأنا ماقلت هذه الكلمة الا وانا واع تماماً لما اقول .. وانني استطيـع ان أؤكد لـكم ان المغول

اذا استطاعوا أن يهزموا المسلمين فانهم لم يستطيعوا قط هزيمة الاسلام ، على الرغم من تهديمهم المساجدوجعلها اصطبلات ، وعلى الرغم من سلاح القتل والتدمير الذي لجؤوا اليه ..

ولئن استطاع المغول أن ينتصروا ويكتسحوا البلدان فلأن المسلمين لم يكونوا مسلمين حقيقيين .. ولو كانوا على ماتقتضيه قواعد الاسلام لأعدوا للأمر عدته قبل وقوعه ، وفاقاً لقوله تعالى: **« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم »** (٨/٦٠) .. بل انهم لو كانوا مسلمين حقيقيين لغزوا عدوهم في عقر داره ، قبل أن يستكمل تجميع قواه الضاربة ، ولادخلوهم جميعاً في الدين الحق .

وهز الشيخ رأسه ساخراً ، وفي أعماق نفسه مرارة شديدة أبت الا أن تظهر على نبرات صوته وهو يقول :

- كلكم يعلم ما كان عليه المسلمون آنذاك ، من تفسخ وانحلال وركض وراء الأهواء والشهوات والمتع الرخيصة ... فهل هذا من الاسلام في شيء ؟؟

وهل نستطيع أن ندعي أن هزيمة خليفة بغداد هزيمة للاسلام ، على حين أنكم تعلمون ان ذاك الخليفة كان في مجلس لهوه حين أحاط المغول ببغداد وحاصروها ؛ فلم يبال بذلك كله ، حتى ان

سهما ارسله احد الاعداء اصاب احدى المغنيات بين يديـه فقتلها على الفور ؟!

ووقف أحد الحاضرين يقول :

ــ اذا اراد الله إنفاذ قضائه وقدره أذهب من ذوى العقول عقولهم ..

ان عقل الانسان لايكاد يصدق ما يُسمع ..
لقد سمعت احد من أرخوا سقوط بغداد يقول :

ــ « واحاطت التتار بدار الخلافة ، يرشقونها بالنبال من كل جانب .. حتى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفه وتضحكه وكانت من جملة حظاياه وكانت مولدة تسمى "عرفه"، جاءها سهم مـن أحد الشبابيك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة »[1] .

وبصوت مشبـع بمرارة الأسى ، تابـع الشيـخ حديثه يقول :

ــ ان الاسلام ماهزم ، ولا يمكن أن يهزم بهزيمة المسلمين ولابهزيمة (الخليفة) ... بل انه عندما أتيـح للمسلمين قائد كالملك المظفر قُطُز يتمسك بالاسلام ، ويصيـح في معركة عـــين جالوت ، تلك الصيحة المدوية (وا إسلاماه) لم يخسر المسلمون ولا الاسلام المعركة ، بل

---

(١) « البداية والنهاية » ج ١٣ الصفحة — ٢٠٠ -

استطاعوا من خلالها ان يوقفوا المد المغولي المهول ، ويضعوا حدا لتلك المأساة المروعة !!

وإن الواقع الذي عشناه خير دليل على ما أقول .

فما كادت حـدة الهجمات المغولية تفتر حتى هب الدعاة إلى الله ، يوجهون سهامهم الى المغـول أنفسهم ، فيدْعونهم الى الدين الحق .. وما أسهل أن يقع هؤلاء أسرى للحقيقة التي تظهر لهم بعد إذ جهلوها أمداً طويلا ، فيدخلون دين الله ، مطأطئين له رؤوسهم بعد أن دانت لهم الأرض !!

ولئن استطعنا ، بفضل الاسلام ، أن ننتصر على المغول في بلادنا ، فاننـا اليوم سنعمل على غزوهم في عقر دارهم ... ليس غزو الجيوش والسلاح .. بل غزو المبادىء والأفـكار !!

ولقد سبقنا الى هذا العمل ، من قبل ، عدد كبير من المؤمنين ، ممن هبوا يدعون الى الله ، وينادون بالتمسك بدينه . ولكن العمل لم ينجح بعد النجاح المأمول .

وصمت الشيـخ برهة ...

ووجـد الحاضرون أن المجـال صار مناسباً ليفصحوا عن التساؤلات الكثيرة التي قفزت الى أذهانهم ، حول جدوى الدعوة

المادثة التي يدفعهم اليها الشيخ ، بعد إذ ثبت فشلها المرة تلو الأخرى ..

ووجد أحدهم في صمت الشيخ فرصة ليبادره في تقرير بعض الحقائق ؛ لعلها تكون سبباً في تحويله عن وجهته الاولى ، فقال:

ـ لقد أسلم عدد من ملوك مملكة « جغطاى » (في آسيا الوسطى) التي نحن متجهون إليها في مهمتنا هذه .. الا أن دخولهم في هذا الدين لم يجـدِ نفعاً .. فـ « بركه خان » الذي ربته أمـه على الاسلام لم يلبث أن خُلع ... كما أن « براق خان » الذي دخل الاسلام في أخريات أيامـه ، لم يكن لاسلامه أي أثر بين المغول ، بل انه هـو نفسه لم يدفن وفق شعائر الدين الاسلامي ، بل جرى دفنه وفقاً للطقوس الوثنية التي كان عليها المغول ، ومن ثم ارتدت القلة القليلة ممن أسلم معه الى وثنيتهم الأولى ... كما أن « طرماشين » الذي عمل جاهداً على نشر الاسلام بين قومـه لم يلبث أن طُرد من العرش ... واضطُهد المسلمون شر اضطهاد على يد«بوزان» .. ولايزالون يضطهدون حتى الآن ، على الرغم من تمزق مملكة « جغطاي » الى ممالك ، أكبرها ـ كما هو معروف ـ مملكة « كاشغر » !!

ولم يفصح الرجل عما كان يدور في رأسه من أفكار .. إلا أن الشيخ الذي تعمد الصمت ، ليفسح المجال لاخوانه

للاعراب عمـــا في أنفسهم، لحظ من مجرى الحديث مايدل على صدق ماتحسسه في نفسه مما يمكن أن يكون قد خطر على ذهن صحبه من تساؤلات — لم يجرؤوا على الافصاح عنهـــا — حول جدوى المهمة التي ينتدبهم اليها، في الوقت الذي يرون فيه أن غيرهم — ممن كان قبلهم — قد أخفق، فقال :

- وانا اليوم، سنستدرك — إن شاء الله تعـالى — الخطأ الذي وقع فيه من قبلنـا؛ لعلنا نستطيـع — بفضل الله — أن نؤدي الواجب المطلوب .

ثم أردف يقول :

- لقد بحثت في سر إخفاقهم .. فوجدت أن الملك منهم كان يدخل في الاسلام ولا أعوان له ممن حوله من القواد والوزراء، يساعدونه في الملمات، ويرشدونه الى الصواب .. وقـــد قال النبي ﷺ :

(إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه . واذا أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسى لم يذكره وان ذكر لم يعنه)[١] .

---

(١) رواه أبو داود والبيهقي عن عائشة .

كما قال سيدنا موسى من قبله مناجياً ربه :

« واجعل لي وزيراً من أهلي ، هارون أخي ، اشدد به أزري ، وأشركه في أمري »[1] .

ولذلك فاننا سنعمد في رحلتنا هذه الى الاتصال بكل من نستطيع الاتصال به من القواد والامراء ، وندعوهم الى الاسلام قبل الاتصال بالملك .. ثم اذا ماتيسر لنا الاتصال به فسيكون العمل سهلاً هيناً ان شاء الله !!

فاستعينوا على تنفيذ مهمتكم هذه بما عرف عنكم من همم عالية ، وخوض في غمار المصاعب ، لاتهابون شيئاً مادام ذلك في سبيل الله .. وليكن دائماً رائدكم الاخلاص لله وحده ، فان الاخلاص ما خالط أمراً إلا يسره !!

ولاتنسوا ذكر الله في جميع أحوالكم .. ولتكونوا مثل أولئك المؤمنين ، الذين وصفهم الله تعالى في قوله :

« رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله »[2] .

راقبوا قلوبكم ، ولتشعروا أنكم في معية الله ، فالله

---

(١) « سورة طه » الآية : - ٣٢ -

(٢) « سورة النور » الآية - ٣٧ - .



« ولا بد أن يكون هناك كثيرون من أنصار النبي قد انتشروا في طـــول امبراطورية المغول وعرضها ، مجاهدين في طي الخفاء لجذب هــؤلاء الكفار إلى حظيرة الاسلام »

معكم حيثما كنتم .

« ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » ٥٠/١٦

وليكن شعاركم في كل أعمالكم :

(إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي) .

ولنسر على بركة الله !!

. . .

وأسرع الشيـخ جمال الدين يمتطي راحلته ، يسابق صحبه،

ينساب الى بطن الوادي في المسالك الموصلة الى سهوب مملكة (كاشغر) في آسيا الوسطى ، وكأنما يريد من اندفاعه هذا ان يعطي صحبه المثل الحي عن الاندفاع في سبيل الله ، وعـــدم المبالاة بكل مايكتنف مهمتهم من صعاب !!

وشرع صحبه يغذّون السير وراءه .. لايتقدم عليه الواحد منهم إن أسرعت به الدابة ، فلقد تعودوا الأدب معه حتى في مثل هذه الامور الصغيرة !!

ومضى الركب أياماً متتالية ، يقطع الفيافي والأودية ، يجتاز السهول ، ويعتلي الهضاب « بهمة صادقة وعزيمة لاتلين وصبر لاينفد .. لايكاد يأخذ شيئاً من الراحة حتى يهب لمتابعة المسير وكأنهم في سباق مع الزمن !

ومن يدري ؟ فليس للمرء من حياته إلا مايغتنمه من فرص يغفل عنها الزمن ..وان شئت فقل : ليس للمرء الا مايغتنمه من النفحات الالهية التي يجود بها المولى علينا .. فان نحن لم نتعرض لها فاتتنا ، وفاتنا بذلك الخير الكثير !!

على ابواب مدينة كاشغر

« ولما ظل الشاب ثابتاً على الدين الحق ، ولم يكترث للوعد والوعيد اللذين لقيهما من هذه الجماعة المفسدة أمر المغولي اللعين بانزال العقاب بهـــذا الشاب أمام الملأ ؛ وقد فارق هذا العالم وهـو في سعادة الدين !!

وكان من أثر ذلك أن حل اليأس والخوف بجماعة المسلمين في سمرقند .. »

ومع غروب ش
كاشغر ، تلوح لهم

سير توماس آرنولد

ومع غروب شمس اليوم التاسع عشر ، أطل الركب على مدينة كاشغر ، تلوح لهم من الأفق البعيد ...

وكادوا يفقدون صوابهم من شدة الفرح ! لقد تم لهم اللقاء بعد طول سفر .. وآن لهم أن يريحوا دوابهم المضناة ، التي أرهقهـــا طول الطريق .. أما هم أنفسهم فانهم لايدرون ماسيقرره الشيـخ ! ترى هل سيمنّ عليهم بالراحة تلك الليلة ، أم إنه سيحثهم على مواصلة العمل ،غير مبال بما أصابهم من ارهاق ! ومهما تكن الظروف فانهم مستعدون لكل تضحية !

ولم تطل بهم هواجسهم تلك .. فلقد صاروا على مسافة قريبـة من مدخل المدينة .. فوقف الشيـخ .. ووقف الركب كله ،

ينتظر باصغاء ماسيلقيه عليهم شيخهم من تعليمات !

وبعد لحظات من الصمت المطبق ، استقطب خلالها الشيخ جمال الدين انتباه من حوله ، ابتسم ابتسامة لطيفة تفتحت لها نفوس من كان معه ، فتجددت بها عزائمهم ؛ ثم أنشأ يقول :

ـ تعلمون أننا اليوم على أرض كفرة وثنيين ، قد انتزعت الرحمة من قلوبهم فلم يبق لها أثر ، بل لربما لم تعرف الرحمة الى قلوبهم سبيلا ..

وهذه المدينة التي نحن على أبوابها اليوم ، خير شاهد على صدق ما أقول !

وانطلق واحد من صحبْ الشيخ يقول : أجل ياسيدي .. ما أكثر أولئك الدعاة المسلمين الذين سبقونا في الدعوة الى الله في هذه البلاد ، وكان القتل والتشريد مصيرهم هم وجميع من دخل معهم في هذا الدين الحنيف .

وقام آخر .. يوضح الحالة التي كان عليها المسلمون في هذه البلاد فقال :

ـ وهل يمكننا أن ننسى مافعله « جنكيز خان » بكل من ينمى اليه خبر اسلامه !

لقد سن قانونا اجتماعياً لمملكته سماه (الياساق) ... وكان

من جملة ماشرعه فيه :[1] « أن من ذبح حيوانا كذبيحة المسلمين ذبح » .

كما أن «جغطاي » ـ مؤسس هذه المملكة ـ «ضيق على رعاياه من المسلمين بما سنه من القوانين الشديدة الحرج ، التي ضيقت على شعائرهم الدينية ، فيما يتعلق بذبح الحيوانات للطعام وفرائض الوضوء » .

كما أنه « بلغ من شدة عدائه لهذا الدين أنــــه لم يكن يرغب أن ينطق أحد بكلمة«مسلم»في حضرتــــه ؛ اللهم إلا اذا أريد بها التحقير والحط من شأنها » !

. . .

وأجال الشيخ جمال الدين نظره في صحبه ، يتفرس في وجوههم ... فرأى أن علامات الأسى قد ارتسمت على محياهم .. وشعر أن اليأس بدأ يجد طريقة الى نفوسهم المؤمنة ... فالتفت اليهم يقول :

ـ وفي غمرةمن هذه الشدة التي تنتظركم على أبواب هذه المدينة لابأس من أن أورد لكم هذه القصة الواقعية التي جرت مع أحد الدعاة الذين سبقوكم الى بلاط (كيوك) ؛ لعلكم تجدون فيها شعاعاً يضيء لكم الطريق ..

---

(١) « تاريخ الاسلام السياسي » ج ٤ ص ١٢٧ .

صمت الشيخ برهة ، استجمع خلالها ذكرياته ثم أنشأ يقول

— « روى بعض الثقات أن كهنة البوذية ، كثيراً ما كانوا يوغرون صدر ذلك الأمير على المؤمنين ، ويحملونه على اضطهادهم وكان في هذه البلاد أحد أئمة المسلمين ،وهو«نور الدين الخوارزمي» .. وقد التمس من (كيوك) بعض العلمانيين وقساوسه المسيحيين وفريق من كهنة البوذية من عبدة الاوثان ، أن يستدعي ذلك الامام ليناظروه ويحاجّوه ، طالبين منه إقامة الحجة على تفوق الدين الاسلامي ، واثبات رسالة محمد (ﷺ) وإلا كان مصيره القتل إذا أعيته الحجة .. وقد أجابهم الخان الى طلبهم ، وبعث في طلب الامام ... وطُرحت على بساط المناقشة مسألة صحة دعوى محمد النبوة[١] وسلوكه في حياته ، مع موازنته بسلوك غيره من الانبياء ... ثم لما كانت أدلة هؤلاء الملاعين ضعيفة ، خالية من قوة الحق ، نفضوا أيديهم من تلك المساجلة بالبراهين والحجج ، ورسموا خطة من خطط الظلم والسخط على صفحات ذلك التدبير الذي عقدوا العزم على تنفيذه ، فسألوا (كيوك خان) أن يأمر هذا الامام بأن يسجد سجدتين وفق قواعد الشريعة الاسلامية وتعاليمها ، حتى تتبين أمامهم وأمام الخان ،

---

(١) حسب مايرويه « سيرتوماس آرنولد » .

حركات عبادتهم غير المستملحة ... فأمر (كيوك) ذلك الامام والمسلم الآخر الذي كان معـــه بأداء الصلاة ، حسب الأوامر الدينية المعروفة عند المسلمين ... فلما خرّ الامام الورع والمسلم الذي كان معه على الارض ساجدَيْن ، قـام بعض الكفار الذين دعاهم (كيوك) وأسرفوا في إيذائهم ، وأخـذوا يضربون رؤوسهم في الأرض في شدة وعنف ... واقترفوا معهم بعض الاعمال المخزية !! على أن ذلك الامام الورع لم يأبه لكل هذا العنت والمضايقة ، وأدى الصلاة وآدابها ، من غير أن يقطعها ..

ولمـــا انتهى الامام من صلاته وسلم ، شخص ببصره الى السماء وقال :

« ادعوا ربكم تضرعاً وخفية »[1].

ثم طلب إلى (كيوك) أن يأذن له بالانصراف ، وعاد الى بيته »[2].

وتأنى الشيـخ في حديثه،وهو يخاطب من معه بقوله :

(١) « سورة الاعراف » الآية — ٥٥ — .

(٢) « الدعوة إلى الاسلام » صفحة ـــ ٢٥٧ — .

أرأيتم يابني إلى أي حـد وصلت بهم معاداة هذا الدين الحنيف ؟ !

أرأيتم أن دعوة ذلك الامام المسلم الى الله كانت « بالحكمة والموعظة الحسنة » ؟ !

فاذا ماالجؤوا الى الاعتداء عليه لم يزد على أن ردد قوله تعـالى :

« ادعوا ربكم تضرعاً وخفية »

وفيها اشارة خفية الى تتمة هذه الآية بقوله تعالى :

« إنه لايحب المعتدين »[1]

ثم استأذن الملكَ،وانصرف بكل أدب ، من غير أن يجابههم بأدني كلمة !!

لمثل هذا ينبغي عليكم أن توطنوا أنفسكم ...

وبأدب بالغ ، أدب التلميذ مع أستاذه ، وقف واحد من صحب الشيخ يقول :

---

(١) « سورة الأعراف » الآية — ٥٥ — .

— ولكننا إذا ماسرنا على نهج الملاينة والمسايرة الذي توضحه لنا بفعل ذاك الداعي ، فان ذلك سيوصلنا الى مايمكن أن نسميه خضوعاً وتذللاً بين يدي كفرة وثنيين، الامر الذي يجعلنا بعيدين عن الخط الذي رسمه القرآن الكريم للمسلم ، في قوله تعالى :

« ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين »[1]

فأين هذه العزة التي أورثها الله للمسلمين المؤمنين مما فعله ذلك الداعي ؟؟

إن أبسط مايمكن أن يجود به المؤمن هو روحه .. فلماذا يجبن عن الجود بها في مثل هذا الموقف الذي يتطلب تقديم الغالي والرخيص ؟؟

ثم ألا يعتبر ذاك التراخي من باب موادة من عادى الله ورسوله ، الأمر الذي يبعد صاحبه عن درب الايمان ؟؟

قال تعالى :

« لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ اللهَ ورسولَه،ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم »[2] .

---

(١) « سورة المنافقون » الآية — ٨ — .

(٢) « سورة المجادلة » الآية — ٢٢ — .

وقال جل شأنه :

« ومن يتولّهم فأولئك هم الظالمون » [1] !

● ● ●

وبصدر رحب يدل على عظمة صاحبه ، أنشأ الشيخ يوضح ماخفي على السائل من نقاط فقال :

– إن معرفة الحكم الشرعي لاتكفي وحدها . . ولكن علينا ، بالاضافة الى ذلك أن نعرف الوقت والزمان الذي يصلح له هذا الحكم الشرعي . .

– إننا لم نتولَّ أحداً من أولئك الكفرة الظالمين . . ولم يكن قطّ منا مودة لهم ...

واني اذ أطلب اليكم أن تلجؤوا الى الملاينة وعدم مجابهة العدو ، فذلك لأنكم لا تملكون شيئاً من أسباب القوة ..

وماذا يمكنكم أن تفعلوا بعد إذ فشلت الجيوش المدربة المنظمة !

ثم هل كان رسول الله ﷺ غافلا عما أورثه الله من عزة،

---

(١) « سورة الممتحنة » الآية – ٩ – .

يوم أن طلب ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ الدخولَ في حماية بعض المشركين ؟

إن رسول الله ﷺ لما رَجع من الطائف « طلب أن يجيره الأخنس بن شريق وسهيل بن عمرو ومطعم بن عدي ـ وجميعهم مشركون ـ فرفض الأولان وقبل الأخير » .. « فتسلح المطعم هو وبنوه ، وتوجهوا مع رسول الله الى المطاف ، فقال له بعض المشركين أمجير أنت أم تابع ؟ فقال : بل مجير . قالوا : اذن لاتخفر ذمتك »[1] .

أجل أيها الأحبة .. ان رسول الله ﷺ لم يكن غافلاً عما أورثه الله من عزة ! بل انه لمن العزة ، في ذلك الموقف ، ألا يعرِّض نفسه لانتقام قريش وهو لايملك قوة ولا منعه ..فلكل ظرف حكم ، ولكل وقت رأي !

وهذا ماعبرتُ عنه منذ قليل بأنه يترتب علينا ،بالاضافة الى معرفة الحكم الشرعي ،أن نعرف الوقت والزمان الذي يصلح له ذلك الحكم .

وإن الظروف التي أحاطت بالدعوة الاسلامية يوم صلح

(١) «نور اليقين» صفحة ـ ١٠٣ ـ .

الحديبية ، جعلت النبي ﷺ يرضى بشروط لايمكن أن يقبل بشيء منها يوم فتح مكة .. لقد قبل النبي (ص) بشروط صلح الحديبية التي كان أهمها : [1]

١ – وضع الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنوات .

٢ – من جاء المسلمين من قريش يردونه ، ومن جاء قريشاً من المسلمين لايُلزَمون بردّه !

٣ – أن يرجع النبي من غير عمرة هذا العام !

« أما المسلمون فداخلهم منها – أي هذه الشروط – أمر عظيم . وقالوا : سبحان الله ! كيف نردّ اليهم من جاءنا مسلماً ، ولا يردّون من جاءهم مرتداً ؟ » [2] .

« وأما الأمر الثالث ، وهو صد المسلمين عن الطواف بالبيت ، فكان أشد تأثيراً في قلوبهم » حتى إن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قال لرسول الله ﷺ : ألسنا على حق ؟ ! قال : بلى ! قال : فلمَ نرضى بهذه الدنية لنفوسنا ؟ !

هذه الشروط المجحفة في ظاهرها بحق المسلمين كانت ، في الحقيقة ، نصراً وفتحاً مبيناً ، جديراً بأن ينزل الله تعالى فيه قوله :

---

(١) « نور اليقين» : صفحة – ٢٧٦ – .

(٢) المصدر نفسه : صفحة – ٢٧٧ – .

« إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً »[1]

لقد كان من نتيجة هذا الصلح « اختلاط الكفار بالمسلمين فخالطت بشاشةُ الاسلام قلوبَهم . حتى قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه : ما كان فتحٌ في الاسلام أعظمَ من فتح الحديبية ، ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه ، والعباد يعجلون والله لايعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد »[2].

* * *

وبعد أن أجال الشيخ بصره في وجوه اخوانه ، يتفرس فيما ارتسم عليها من تساؤلات ، تابع يقول :

– ان مرحلة الدعوة في هذا البلد تشبه مرحلة دعوة النبي ﷺ في مكة ..

لقد تحمل النبي الكريم ﷺ من قبلكم الايذاء والعنت من قريش ؛ إذ تعرضوا له غير مرة ، ووجهوا اليه الاهانات المتكررة ..

داس «عقبة بن معيط »ـ عليه لعنة الله ـ على رقبته الشريفة ﷺ ،وجاء بفرث جزور (كرشة جمل مليئة بالأقذار) « وألقاه

---

(١) « سورة الفتح » الآية ـ ١ ـ .

(٢) « نور اليقين » صفحة ـ ٢٨١ ـ .

على النبي ﷺ وهو ساجد ، فلم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على القائه عنه ؛ لضعفهم عن مقاومة عدوهم ، ولم يزل عليه السلام ساجداً حتى جاءت فاطمة بنته ، فأخذت القذر ورمته »[1] .

ووضعت أم جميل ـ زوجة أبي لهب ـ الشوك في طريقه ﷺ إمعانا في ايذائه[2] .

ونعتته قريش بأوصاف شتى لاتليق بانسان عادي ، فقالوا عنه : ساحر ، وقالوا : مجنون .. وكاهن .. وكذاب ..

بل انهم تآمروا على قتله (ﷺ) ، ليلة هجرته الى المدينة المنورة .. فاجتمعوا أربعين شاباً من مختلف القبائل ، ليضربوه ضربة رجل واحد ، حتى يضيع دمه بين القبائل ..

لكن ذلك كله لم يفتّ في عضده ..

وتحمل كل تلك المشقات بنفس راضية ... لاتزيد على أن قالت يوم أن تجمع غلمان ثقيف حوله في الطائف ، يرشقونه

---

(١) « نور اليقين »: صفحة ـ ٦٢ ـ .

(٢) وفيها نزلت « سورة المسد » « تبت يدا أبي لهب وتب » الى قوله تعالى « وامرأته حمالة الحطب ، في جيدها حبل من مسد »

بالحجارة حتى أدموا عقبه :

« اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس » !!

« يا أرحم الراحمين .. أنت رب المستضعفين .. وأنت ربي .. إلى من تكلني ؟ الى عدو يتهجّمني ؟ أم الى غريب ملكته أمري ؟ !

« ان لم يكن بك غضب علي فلا أبالي . . ولكن عافيتك هي أوسع لي ..

« اني أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي غضبك ؛ أو تحل بي سخطك ! !

« لك العتبى حتى ترضى » ! !

« لاحول ولا قوة إلا بك » [1] .

* * *

واختنق صوت الشيخ وهو يردد تلك العبارات النبوية ..

---

(١) « نور اليقين » صفحة ـ ١٠٠ ـ .

فصمت برهة يجيل طرفه في الحاضرين .. فلمح في أعينهم عهداً على السير في هذه الطريق الصعبة الوعرة ! وكأنما لسان حالهم يقول :

– سنتحمل كل اضطهاد في سبيل تبليغ دعوة الله ..

وبعد أن استجمع الشيخ في نفسه القدرة على متابعة حديثه تابع يقول :

– أجل يا أبنائي .. هذا هو درب الحكمة .. انه يتطلب منا ان تتحكم عقولنا في عواطفنا ، وليس أن تسيّرنا عواطفُنا الهوجاء ، ولو كانت عواطف نبيلة سامية .. إنه درب الحكمة.. درب حافل بالأشواك !!

ورحم الله أبا الطيب المتنبي الذي خاطب نفسه بقوله :

تريدين لقيان المعـــالي رخيصة

ولا بد دون الشهد من إبر النحل

فهل انتم مستعدون لتحمل تلك الأشواك ، في سبيل الوصول الى الغاية المرجوة ، وتحقيق الشعار الذي عاهدتموني على أن تضعوه نصب أعينكم : (الهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي) ??

وصاح الجميع بصوت واحد :

أجل مستعدون ∴



إننا مستعدون إن شاء الله ،لكل شيء يصيبنا،مادام ذلك في سبيل الله

ــوتابـع أحدهم،يقول بلسانهم جميعاً :

إننا مستعدون إن شاء الله لكل شيء يصيبنا،مادام ذلك في سبيل الله ، فلقد عاهدناك على أن نبيـع أنفسنا لله ، ولن ننكث بعهدنا ، ولن نتخلى عن تحقيق وعدنا ، مادامت فينا عين تطرف ... فقال الشيخ :

ــ إذن سيروا على بركة الله ... ولا تنسوا أنكم تدخلون هذه المدينة باعتباركم فئة من التجار الذين يعملون بين فارس والهند ... ولنتجه كما يتجه التجار عادة الى (النزل) لننام فيه ، فاذا أسفر الصبح قررنا ما يترتب علينا فعله .

* * *

وسار الركب في الطريق ، ليعبر بوابة المدينة ، ثم يمر بين أزقتها المتعرجة ؛ حتى يصل إلى (النزل) المطلوب ...

وهناك توقفوا ليحطوا عن دوابهم ما عليها من أمتعة .. ثم دخلوا الى حيث يقيم النزلاء ... وبعد أن حيوا من فيه من المسافرين جلسوا في أحد أركان البهو الفسيح ... وتناولوا طعام العشاء ، غير ناسين دعوة من كان الى جانبهم لمشاركتهم الطعام ... كما لم ينسوا المسامرة مع بقية النزلاء ...

ولقد بدا من روعة حديث الشيخ ما جذب انتباه الجميع فجعلهم يصغون إليه بنفوس منفتحة ، وقلوب منشرحة ..

وما كاد النزلاء الجدد ينتهون من عشائهم حتى بدأ الشيخ جمال الدين بالحديث عن مدينة « كاشغر » وجمالها ... ثم استدرج الحاضرين إلى الحديث عما يعرفون عن هذه المدينة وأحوالها ، وطبائع أهليها وسلوك أمرائها ، وأسماء ومراتب من يُتوسَّم فيهم الخير من القواد والأمراء ...

وما انتهى من حديثه حتى كان الهزيع الأول من الليل قد مضى ، وشعر الجميع بالحاجة إلى الاستسلام الى أحلام هانئة ... غير أن الشيخ كان قد جمع من خلال تلك المسامرة كل ما هو بحاجة إليه من معلومات لترتيب وتنسيق العمل لليوم التالي .

واستسلم الجميع لنوم عميق وأحلام وافرة ...

السعي المتواصل لتحقيق المهمة

« ولم تمض أيام حتى استطاع
أن يجتذب عدداً لابأس به
من القواد الى الاسلام ...
ولكنهم ما زالوا قلة ... »

وفي وقت طلوع الفجر استيقظ الشيخ وصحبه ، وقاموا سراعاً الى صلاتهم دونما جلبة أو ضوضاء ..

ومع زقزقة العصافير التي هبت تستنشق نسيم الصباح المنعش ، كان الشيخ وصحبه يدلفون مع الناس الى السوق ، يبيعون ويشترون ، ويحتكون بالناس ، فيتعرفون أشخاصهم وطبائعهم وميولهم .

ثم توجه الشيخ ومن معه إلى أحد الأمراء ، ممن تفرس فيهم الخير ... وبعد أن طلب له الإذن ... دخل على الأمير محيياً بأرق تحية ... وتبادل معه أحاديث ودّية اجتذب خلالها اهتمامه ...

وراح يتكلم عن الأخلاق وحسن المعاشرة في حديث أسر لب سامعه ...

ثم انتقل من ذلك إلى الحديث عن أخلاق المصطفى ﷺ

وما أتى به من مبادىء تضمن للانسان السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة ... يفصل في ذلك تفصيلاً استثار إعجاب الأمير الذي كان يتطلب المزيد ...

وفي ختام المطاف أعرب ذاك الأمير عن رغبته في اعتناق هذا الدين الحنيف !! إلا أنه أعرب للشيخ عن تخوفه من أن يصل خبر إسلامه إلى الملك ، الذي اذا علم بدخوله في هـــذا الدين ، فانه سيصب عليه جام غضبه ... بل لربما أدى بـه ذلك الى العزل والاضطهاد والقتل ..

وما أشد اعجاب الأمير برأي الشيخ الذي طلب منه أن يكتم اسلامه ، فلا يظهره الا عندما يحين الوقت المناسب !!

وخرج الشيخ من عند ذلك الأمير ، محاطاً بالإعزاز والعناية والتكريم ، ليقصد من توّه أحد قواد الجند ، فيبدأ معه العمل من جديد ... فاذا ما وصل به الى الاسلام طلب منه أن يكتم اسلامه ... ثم يتركه ليقصد غيره ...

وهكذا ... لم تمض أيام حتى استطاع أن يجتذب عدداً لا بأس به من القواد الى الاسلام ... ولكنهم مازالوا قلة ، لا يستطيعون عمل شيء امام جبروت الملك « تغلق تيمور خان » .

في السجن

« وأمـــر الملك باحضار الأسرى بين يديـه ... فأحضروا وقد قيـد كل منهم بقيدين اثنين ».

وفي مساء يوم قائظ ، وبينما كان الشيخ جمال الدين مع صحبه في احدى ضواحي (كاشغر) ، يتدارسون - في ذاك المكان القصي عن الأعين - ماآل اليه أمر دعوتهم ، اذا غبار يصاعد من بعيد ، يشير الى كوكبة من الفرسان قادمة باتجاههم ... فأسرع الشيخ وأمر من معه بركوب دوابهم ، والاتجـاه نحو (كاشغر) وكأنهم قادمون اليها بقصد التجارة لا غير !!

وسرعان ماانجلى الغبار عن كوكبة الفرسان ... فاذا بفرس مطهم ، عليه سرج مذهب ، قـد علق على نحره بعض القلائد الثمينة ، يمتطيه فارس شجاع، يبدو عليه خيلاء العظمة والاعتزاز... يحيط به عدد من الفرسان الأشاوس ، الذين يسيرون بين يديه وكأنما هم رهن اشارته !!

ويشتد اقتراب الكوكبة من الشيخ ومن معه ... ويصدر ذاك القائد العظيم لمن حوله إشارة تـدل على غضب ونزق

عظيمين ... فيبادرون سراعاً الى الشيخ وصحبه ، ويسوقونهم اليه بكل ما اوتوا من غلظة وعنف !!

ويا لدهشة هؤلاء المقبوض عليهم عندما يعلمون أن ذاك القائد المغضب ليس الا ملك (كاشغر) «تغلق تيمور خان» !!

فيتجلد الشيخ ..على حين يسقط بأيدي من معه فلا يحيرون جواباً لما توقعوه من اسئلة انهالت على مخيلتهم ...

وأمر الملك بالجميع «أن توثق أيديهم وأرجلهم » ... فأوثقوا وسيطر عليهم الخوف الشديد،بعد أن كُشف أمرهم، ووقعوا في قبضة الملك !!

انهم لا يخافون الموت ... فالموت في سبيل الله أمنيتهم... لكنهم كانوا يفكرون فيما ستؤول اليه دعوتهم التي حملوها .. خائفين من تهديم البنيان الذي سعوا الى اقامته بجهد وصبر طويلين ...

• • •

وسرعان ما جزم بعضهم بأن هناك من دل عليهم ، وأرشد الى مكانهم ، وأن الملك قد شعر بالخطر الداهم الذي يحتمل أن يحدق به من جراء دعوتهم ، فأتى بنفسه مع هذه الكوكبة من الفرسان ليقبض عليهم (بالجرم المشهود) .

بل لأن بعضهم،شعروا بالخطأ الذي ارتكبوه هم وشيخهم ،

ورأوا أن الحيطة والحذر كان ينبغي أن يأخذا قسطاً أكبر من اهتمام الشيخ !! ولكن لم يزيدوا على أن قالوا : (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) !!

. . .

وأمر الملك باحضار الأسرى بين يديه .. فأحضروا وقد قيد كل منهم بقيدين اثنين : قيد الحديد الذي يكبل يديه ورجليه ..وقيد الغربة الذي يكبل نفسه فيجعلها عاجزة ، تحس بالضعف والوهن ، فكيف بها وقد اصبحت أسيرة،تلاقي جزاء ما قامت به من أعمال يعدها الملك مؤامرة للقضاء عليه !!!

ومَثُل الجميع بين يدي الملك المغضب ، الذي سألهم بحنق وغيظ شديدين قائلاً :

— كيف تجرؤون على دخول هذه الارض وقد حرمناها على عامة الناس،لتكون خاصة بنا ... نتروض فيها ونبتغي الصيد ؟؟

غير أن هذا السؤال الذي يحمل بين طياته التهديد الكبير، وقع من نفس الشيخ موقع الماء البارد في جوف شديد العطش؟؟

فسُرّي عنه ... وزال من نفسه كل ما كان قد اعتراه من هم وغم .. وتبددت من أفقه كل تلك المخاوف !!!

ذلك أنه عرف أن حنق الملك لم يكن بسبب علمه

بدعوتهم وتخوفه من أعمالهم ؛ بل انما كان بسبب اعتدائهم على حماه ، ودخولهم الاراضي التي احتفظ بها لرياضته وصيده !!

وسرعان ما أجاب الشيخ على سؤال الجانق بقوله :

— اننا — أيها الملك — قوم غرباء ... لا نعلم أننا نجوس أرضاً محرمة !!

— من أين أنتم ؟؟

— من « بخارى » ..

— (وباشمئزاز) قال : « أظنكم من الفرس »؟!

— أجل ...

فتبرم بهم الملك ... وباحتقار شديد قال لهم :

— « إن الكلب أغلى ثمناً من أي فارسي » !!

غير أن الشيخ الذي استرد أنفاسه خلال ذلك الحوار ، فقلّب الأمور على وجوهها المتعددة ... رأى أن فرصة الالتقاء بالملك ، التي سنحت له عرضاً ، لربما لم تتح له ثانية ... لذلك قرر اغتنامها بدعوة الملك الى الاسلام ، ولو كان هو نفسه على حال لاتسر الصديق ...

فشجع الشيخ نفسه ... وشدد من نبرات صوته وهو



« نعم قد يكون الكلب أغلى منا ثمناً لو أننا لم ندن بالدين الحق »

يرد على ما أظهره الملك من تهكم واحتقار ، فقال :

– « نعم ... قد يكون الكلب أغلى ثمناً لو أننا لم ندن بالدين الحق » !!

وكان لهذا الجواب وقع الصاعقة على نفس « تغلق تيمور » الذي لم يكن يتوقع مثل تلك الجراءة !! فأمر به أن يؤخذ ، ومن ثم يقدم اليه عند عودته من الصيد ...

★ ★ ★

وشعر الشيخ « جمال الدين » أنه نجح في موقفه هذا نجاحاً يعدل كل عمل قام به من قبل ، في خدمة الاسلام .. إذ

صار المجـــال مفتوحاً ليجري الحوار بينه وبين الملك عن(الدين الحق) !!

وما أشد تلهف الشيـخ إلى مثل هذا! الحوار !!

فهو قد عرف تمام المعرفة أن الاسلام ــ إذا ما أُتيـح له من يحسن عرضه ــ لايمكن أن يُقهر ... بل ان الاسلام سيكون هو المنتصر في كل مجال ، لأنه دين العقل والمنطق ... دين الحقيقة والواقع ...

وما أكثر المجالات التي جرب فيها الاسلام ، فوجــده صالحاً لهذا الزمان وكل زمان ، كما كان صالحاً للزمان السابق أيام جلب العز للسلف الصالح فجعلهم سادة الدنيا وملوك الأرض !! إنه الدين الناجح الذي لايجاريه مجار ولايدانيه نظام ...

• • •

وقضى الشيـخ ساعات من الوقت في تفكير عميق أخـذ عليـه نفسه ، شعر خلالها بالسرور يداخل أعماق نفسه لهـــذا اللقاء المرتقب مع الملك ... في حين أن من مع الشيـخ كانوا يتوجسون خيفة من هذا اللقاء الذي يمكن خلاله لحد السيف أن يفعل فعله بين آونة وأخرى !!

★ ★ ★

الشيخ السجين بين يدي الملك

« ماذا يكون
هذا الدين الحق الذي
يعلي من شأن من
يدينون به ، فيجعلهم
أبطالاً حقيقيين؟؟ » .

وودعت الشمس الدنيا وداع مدنف ينظر بعين حمئة ... فكانت تغرب مولية ، بعد اذ أرسلت خيوطها الذهبية الصفراء ، لتنذر بالفراق ...

وهجمت جحافل الظلام ، تسيطر على أرجـــاء البلاد في مختلف أنحائها ... واذا بالصمت يطبق بجناحيه على المدينة ؛ فتزداد هواجس الأسرى الموثقين ، فيشعرون بمرارة الخيبة بعد اذ تحطمت آمالهم على صخور مدينة (كاشغر) ، وأصبحوا يرسفون في ذل الاسار ، لايدرون ما سيُفعَل بهم !!

ويبدد ذلك الصمتَ المطبقَ صوتُ قرع الأقدام، تقترب من سجنهم ... فتهلع لذلك القلوب ... وترتعد الفرائص ، تخوفاً مما سيكون ... غير أن قلب الشيخ ثابت جلمد لايتغير ... بل انه ليكاد يرقص طرباً لساعة اللقاء الفاصلة !!

وفتح الحراس الباب الموصد ... وساقوا الشيـخ أمامهم !!

وما أسرع خطوات الشيـخ الذي سار في المقدمة ، بخطوات ثابتة لاتتزعزع ... يتعجل الخطا وكأنه يريد أن يسابق دولاب الزمن ... لإنه على موعد مع أمله المنشود !!

وأُدخل على الملك ، ليَمْثُل بين يديه .. مكبلاً بالقيود .. غريباً ضعيفاً .. لا من يدافع عنه .. ولا من يشفع به !!

ولكن مشاعر الشيـخ كانت على النقيض من ذلك ... انه يشعر بالعزة والقوة اللتين يستمدهمـــا من عزة وقوة الله العزيز الجبار ... ويشعر بأن اسلامه خير من يدافع عنه وينقذه من المهـالك ... وهو متأكد من أن (الدين الحق) سيكون له خير شفيـع ، بل سيكون له خير نصير .

. . .

وكان الملك لايزال غارقاً في هواجسه ، يفكر في أمر هذا الدين الحق الذي أشار اليه ذلك الشيـخ الثابت الجنان ...

ترى ماذا يكون هذا الدين الحق ، الذي جعل من هذا الفارسي (المنبوذ) بطلاً صنديداً لايهاب موتاً يراه ماثلاً أمام

عينيه ؟؟!

ماذا يكون هذا الدين الحق الذي يعلي من شأن من يدينون به ، فيجعلهم أبطالاً حقيقيين ؟!

بل هل هناك دين حق ، ودين غير حق ؟!

وكيف يكون حال (الدين الحق) ؟؟

. . .

وما كاد الملك يخلو بالشيخ حتى بادره بالسؤال عما يعنيه من كلامه عن (الدين الحق) ... وما عسى هذا الدين أن يكون !

فبادره الشيخ بالجواب المنطقي ، المعتمـــد على العقل ، و « عرض عليه قواعد الإسلام في غيرة وحماسة ، انفطر لهما قلب الأمير ، حتى كاد يذوب كما يذوب الشمع » ...

لقد ذهب يعرض عليه الاسلام بثوبه الجميل القشيب ، الذي يتجاوب مع المنطق السديد والعقل السليم ... فبين له أن العقل الإنساني هبة من الله جل وعلا ... وأن على الإنسان أن يستعمله فيما يرشده الى طريق الخير ، وليس أن يجمده ويسير مقـــلداً

لآبائه وأجداده ، ولسان حاله يقول : « إنا وجـدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون » [1] .

ثم راح يبين له أن « الدين الحق » الذي يدعو إليه ، إنما هو دين الفطـرة الذي ينسجم مع ماهو في قرارة نفس كل إنسان !!

وفي غمرة من إعجاب الملك بما يُعرَض عليه ، استعرض الشيـخ بعضاً من الآيات الكريمة ، التي تدعو الإنسان إلى التأمل في حكمة الله وحسن تدبيره ؛ فتلا عليه قوله تعالى :

« خلق السماوات والأرض بالحق ، وصوركم فأحسن صوركم » [2]
وقوله جل وعـلا : « وهو الذي خلـق السماوات والأرض بالحق » [3] .

ثم راح الشيـخ « جمال الدين » يعرض تفصيلاً رائعاً ، لما

---

(١) « سورة الزخرف » : الآية ـ ٢٣ ـ
(٢) « سورة التغابن » : الآية ـ ٣ ـ
(٣) « سورة الأنعام » : الآية ـ ٧٣ ـ

يمكن أن تدل عليه هذه الآيات البينات ، على ضوء ما اكتشفه العلم حينذاك ، ووفقاً لأبحاث « البتـــاني » الذي قاس دورة الأرض حول الشمس ، واستطاع أن يحسب مواعيـد الكسوف والخسوف بدقة علمية متناهية .

. . .

وما كاد الشيخ « جمال الدين » ينتهي من استعراضه الموفق للتجاوب الكبير بين مكتشفات العلم ومعطيات الدين ، حتى رأى ملامح الانشراح والسرور تطفح على وجه الملك الصامت المصغي ... فراح ينتهز الفرصة السانحة ، ويستعرض قدرة المولى سبحانـه ، وما أنزله من عقاب بحق الذين اغتروا بقوتهم وجبروتهم ...

ثم ختم حديثه هذا باستعراض لقوله تعالى :

« قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا في الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هـذا بيان للناس وهدى وموعظـة للمتقين »[1] .

وقوله جل من قائل : « قل سيروا في الأرض ثم انظروا

---

(١) « سورة آل عمران » : الآية - ١٣٧ -

كيف كان عاقبة المكذبين »[1] .

ولحظ الشيخ جمال الدين ، الملك يصغي بانتباه شديد ، وقد بدا على محياه التأثر الكبير بالقرآن الكريم ... لذلك ذهب يبين له أن ما حل بتلك الأمم إنما كان بسبب تكذيبهم وعصيانهم لأمر الله ... واستدل على رأيه هذا بتلاوة قوله تعالى :

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون »[2]

وتوقف الشيخ جمال الدين قليلاً ينتظر من الملك أن يعبر عما في نفسه . .

غير أن الملك لم يشأ أن يعبر عن اقتناعه « بضلال معتقداته » قبل أن يفكر في الأمر ملياً !!

● ● ●

وساد جو من الهدوء التام ، راح الملك خلاله يفكر في أمر هذا الدين :

إنه لدين يقبله العقل ويؤيده المنطق !!

بل انه الدين الذي يمكن له أن يجعل الإنسان سعيداً كل السعادة !!

---

(١) « سورة الأنعام » : الآية - ١١ -

(٢) « سورة الأعراف » : الآية - ٨٦ -

انه الدين الذي ترتاح اليه النفوس وتتعشقه ، اذا ما أرسلت على سجيتها وتركت على فطرتها ؟!

وأنى للانسان العاقل أن يقبل بآلهة من الأصنام ، أو آلهة من البشر تأكل كما نأكل وتنام كما ننام ؟!

ان هذه الأصنام حجارة لا تضر ولا تنفع ... بل لاتملك لنفسها ضراً ولا نفعاً ... فكيف يعبدها الانسان ، ويترك عبادة الاله الواحد الأحد ، العلي القدير ، الذي أوجد الكون من عدم ، ونسق شؤونه على خير ما يمكن من نظام !!

حقاً ... ان هذا الدين لهو الدين الحق ... وما عسى أن تكون قيمة الانسان اذا هو انحرف عن الصراط المستقيم ؟؟

وبدت على الملك آثار رعشة خفيفة أصابت جسمه ... غير أنه تابع يحاور نفسه بقوله :

ماذا سيقول عني هؤلاء القواد والأمراء الذين ينكرون هذا الدين ؟؟

لابد الا أن يكون موقفي تجاههم حرجاً ؟!

بل لربما سعوا الى خلعي كما خلعوا من قبلي ،ممن دخلوا في الاسلام !!

ثم قطب « تغلق تيمور خان » حاجبيه وأجاب نفسه بقوله :

ولكن ... هل أتخاذل أمام هـذه الحقائق المذهلة التي يعرضها هذا الشيخ عن (الدين الحق) ؟؟

هل أغمض عيني عن الحقيقة التي رأيتها ناصعة كالشمس في رائعة النهار ؟؟

إن جميـع قوادي يحبونني ويفدونني بأنفسهم ... فلمـاذا لا أعرض عليهم الاسلام وأرشدهم الى الدين الحق ؟؟

الا أن أمراً طارئاً عرض للملك ، فكاد يحول خط سيره وتفكيره الى النقيض من الصراط المستقيم الذي ارتضاه لنفسه !!

ذلك أن مملكتـه في (كاشغر) لم تكن إلا جزءاً من الامبراطورية الكبيرة التي أسسها جده « جغطاي » ... تفتتت مع الأيام ، وتجزأت الى عدة ممالك وامارات ، كانت أكبرها مملكة (كاشغر) التي يحكمها ... وكان « تغلق تيمور خان » يحلم بإعادة توحيد مختلف هذه الاجزاء تحت سيطرته ... ولذلك فقد خشي إن هو انتمى الى هذا الدين أن يفوته تحقيق هذا الحلم المتأصل في نفسه !!

ولكن تصميمه العنيد ، على الانتصار للحق ، لم يلبث أن

دعاه الى أن يدوس بقدميه كل تلك الآمال التي كان يحلم بها ... وهمّ باتخاذ القرار الحاسم ، ليدخل في الدين الاسلامي ، لولا أن لاحت له فكرة جديدة ، ارتاح لها ضميره ...

وخلال فترة السكون التي لفّت الطرفين ، تنازعت الشيخ أفكار ومخاوف شتى ، فلم يجد خيراً من أن يدعو الله عز وجل أن يسدد خطا الملك ، ويلهمه ما فيه الخير والصلاح ؛ فيشرح صدره للاسلام ...

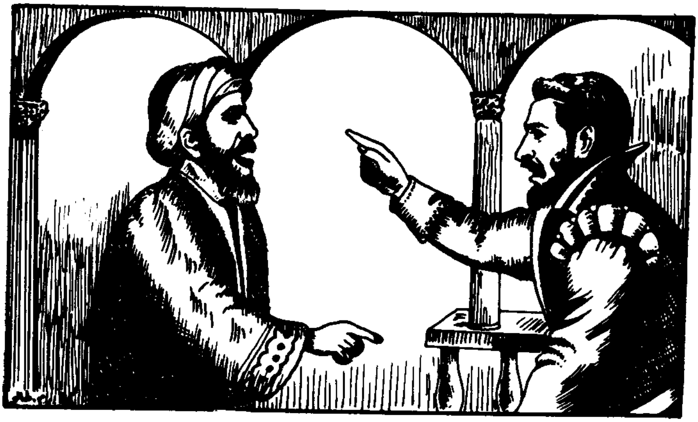
والتقت نظرات الرجلين ... وتلهف الشيخ لسماع كلمة تشف عن موقف الآخر ليطمئن قلبه ...

وأقبل « تغلق تيمور خان » على الشيخ ، يوضح تلك الفكرة التي توصل اليها خلال فترة الصمت فأنشأ يقول :

– أيها الشيخ المعظم ... لقد نظرت في كلامك الذي قلته لي عن (الدين الحق) ، فوجدته على غاية من الدقة والكمال ... وأحببت أن أدخل في هذا الدين الاسلامي ...

واني مستعد لأن أغامر بملكي وسلطاني وحياتي ... في سبيل كلمة الحق .

غير أني أرى أنه من الافضل ، لمصلحة هذا الدين ، ألا



ـ أيها الشيخ المعظم ... لقد نظرت في كلامك الذي قلته لي عن (الدين الحق) ، فوجدته على غاية من الدقة والكمال ... وأحببت أن أدخل في هذا الدين الاسلامي ...

أعلن دخولي فيه الا بعد أن أحقق ما أسعى اليه من توحيد بلاد أجدادي (مملكة جغطاي) تحت نفوذي ... عند ذلك ، فإنني اذا ما أعلنت انتمائي الى الدين الاسلامي فان ذلك سيكون له أكبر الأثر وأعظم الفوائد .

وغمرت الفرحة قلب الشيخ حتى ملأته سروراً وحبوراً !! وازداد إعجاباً بحصافـة رأي الملك وسداد تفكيره وبعد

نظره !!

فأثنى عليه خير الثناء ... وأعرب عن موافقته على رأيه هـــذا !!

واتفق معه على أن يعود اليه في الوقت الذي ينتهي فيه الملك من تحقيق حلمه بتوحيد أرجاء امبراطورية أجداده ...

• • •

وهم الشيخ بالانصراف من المجلس ، إلا أن الملك عاجله بقـــوله :

مهلًا أيها الشيـخ العظيم ... يبدو أنك نسيت صحبك الذين لايزالون في السجن ؟!

– حقاً والله ... لإن هول الموقف أذهلني عنهم ، بل أذهلني عن نفسي !!

وصفق الملك بيده ، فأسرع الخدم الى الحضور ... فوجه اليهم أوامره بإحضار صحب الشيـخ معززين مكرمين !!

صحب الشيخ يتوقعون مكر الملك بهم

« فتجلدوا الموقف الرهيب ...
وساروا بخطى وئيدة ثابتة لاتتزعزع
للمصير الأسود الذي يترقبونه » .

وأقبل الحراس على باب السجن ، يُعملون فيه مفتاحهم ، ليخرجوا مَن فيه ...

وما كاد السجناء الغرباء يرون الحراس وليس معهم الشيخ حتى بلغ بهم الفزع منتهاه . . وعرفوا أن ما ساور نفوسهم من شكوك حول ما سيفعله بهم الملك قد حان موعده ، وأن هؤلاء الحراس ما جاؤوا الا ليذهبوا بهم الى حيث لارجعة ... الى حيث سبقهم الشيخ ...

ولم يكن لما أبداه لهم الحرس من إكرام، أي أثر في تخفيف ما بأنفسهم من هم وغم !! فلقد خالوا ذلك مكراً وخداعاً من الملك ؛ لتكون الوقيعة أشد إيلاماً !!

غير أن ما بأنفسهم من إيمان راسخ ، بدأ يطغى تدريجياً على هول المفاجأة ...

شيوخ « بخارى » وعلمائها ، دفعه الى سلوك طريق التربية الروحية ، المعتمدة على ذكر الله ... الذكر النفسي الخالص ، الذي يُعتبر الطريق الى مرتبة الاحسان الوارد ذكرها في حديث سيدنا جبريل عندما سأل النبي صلى الله عليه وسلم : ما الإحسان ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

(الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فهو يراك)[1] .

وسلك الابن الفتى طريق التربية الروحية ، بإشراف والده المربي ، بهمة عالية لاتلين ، وإقبال على الله شديد ، حتى أحس في أعماق نفسه أن قلبه يتفتح لذكر الله ، فيرى ما لا تدركه الابصار من عجائب الروح !!

• • •

---

(١) عن أبي موسى قال : أتى رسول الله (ص) جبريل في صورة أعرابي ورسول الله (ص) لايعرفه فقال :

... فما الاحسان ؟ قال : (أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فهو يراك) . قال : صدقت . ثم انصرف ، فالتفت النبي (ص) يطلب الرجل فلم يقدر عليه . فقال النبي (ص) : (هذا جبرائيل جاءكم يعلمكم أمر دينكم) .

« رواه ابن عساكر »

وتضاءلت همة الشيخ ، تذوي شيئاً فشيئاً ... ينوء بعبء السنين الطويلة التي عاشها ... ويرزح تحت ثقل المهام الجسام التي تنطح لها ، والمخاطر الشديدة التي تعرض لها ...

غير أن انحطاط قوته الجسمية لم يكن ليحول دون تشوّفه المستمر الى المشرق ... وتطلعه الدائب الى أخبار (كاشغر) لعلها تحمل معها نبأ عن تحقيق الحلم الذي كان يأمل أن يراه ، وهو لايزال على قيد الحياة ، باستعادة «تغلق تيمور خان» امبراطورية أجداده ، ودخوله في الاسلام !!

ولم تكن تلك الأخبار الضئيلة التي كانت تصل اليه عن أعمال ملك (كاشغر) بالتي تشفي الغليل ... فهي لاتعدو كونها أخباراً عن تحركات بسيطة ، ومواقع محلية ذات أثر محدود !!

وكثيراً ما كان يبيت ليله متهجداً ... قائماً لله يصلي آناء الليل وأطراف النهار... يدعو ربه بالنصر المبين لـ «تغلق تيمورخان»..

غير أن أخبار المشرق لم تكن لتعود عليه إلا بالحسرة ، لأن شيئاً من آماله العظام لم يتحقق ..

لقد نفد صبره بعد طول انتظار ! ! .

سنوات ثلاث قضاها وهو مشدود البصر إلى المشرق ... يترقب الأنباء عن (كاشغر) ومليكها ... ولكن انتظاره هذا كان دون جدوى !!

وتضاءلت همة الشيخ ، تذوي شيئاً فشيئاً ... ينوء بعبء السنين الطويلة التي عاشها ... ويرزح تحت ثقل المهام الجسام التي تنطح لها ، والمخاطر الشديدة التي تعرض لها ...

غير أن انحطاط قوته الجسمية لم يكن ليحول دون تشوّفه المستمر الى المشرق ... وتطلعه الدائب الى أخبار (كاشغر) لعلها تحمل معها نبأ عن تحقيق الحلم الذي كان يأمل أن يراه ، وهو لايزال على قيد الحياة ، باستعادة «تغلق تيمور خان» امبراطورية أجداده ، ودخوله في الاسلام !!

ولم تكن تلك الأخبـار الضئيلة التي كانت تصل اليه عن أعمال ملك (كاشغر) بالتي تشفي الغليل ... فهي لاتعـــدو كونها أخباراً عن تحركات بسيطة ، ومواقع محلية ذات أثر محدود !!

وكثيراً ما كان يبيت ليله متهجداً ... قائماً لله يصلي آناء الليل وأطراف النهار... يدعو ربه بالنصر المبين لـ «تغلق تيمورخان» ..

غير أن أخبار المشرق لم تكن لتعود عليه إلا بالحسرة ، لأن شيئاً من آماله العظام لم يتحقق ..

لقد نفد صبره بعد طول انتظار ! ! .

سنوات ثلاث قضاها وهو مشدود البصر إلى المشرق ... يترقب الأنباء عن (كاشغر) ومليكها ... ولكن انتظاره هذا كان دون جدوى !!

مرض الموت

« اللهم اشهد أني أديت الأمانة وبلغت الرسالة » . . وبذلت كل ما وسعني بذله في سبيل نصرة دينك » .

ومرض الشيخ مرضه الأخير ... وأحاطه إخوانه ومريدوه بالعناية والرعاية ...

وشعر بالأجل يدنو منه شيئاً فشيئاً ...

وكاد يصعق لما رأى أن أمله الكبير يتعرض للدمـــار والخذلان ...

فتجلد لذلك ... وكلف ابنه الشيخ « رشيد الدين » ــ محطّ آماله ــ بأن يصرف جميع من حضر ...

وخلا الشيخ بابنه ... وأفضى اليه بكل ما في نفسه من أسرار لقائه بـ« تغلق تيمور خان »، وما تم بينهما من عهد ...

وطلب اليه أن يتابع أخبار تيمور ... فإذا ما علم بانتصاره على أعدائه وتحقيقه لأمله باسترجاع مملكة أجداده ، ذهب اليه يخبره بعهده ، ويطالبه بتنفيذ الوعد ...

ثم أكد وصيته لابنه ، بعبارة موجزة ، جعلهـــا مسك الختام ، فقال :

– يابني ... أصغ الى ما سأقوله لك واحفظه ، واحرص عليه كل الحرص ...

وبنبرات هادئة ... كأنما كان الشيـخ يغرس خلالها كلماته في نفس فتاه غرساً ... أنشأ يقول :

– « سيصبـح تغلق تيمور يوماً ملكاً عظيما . . . فلا تنس أن تذهب اليه ؛ وتقرئه مـــني السلام . . . ولا تخش أن تذكره بوعده الذي قطعه لي »

ثم شخص الشيـخ ببصره الى السماء وهو يقول :

– اللهم اشهد أني أديت الأمانة ... وبلغت الرسالة ... وبذلت كل ما وسعني بذله في سبيل نصرة دينك !!

واختنقت عبارات الشيـخ في حنجرته التي لم تبق قادرة على إظهار الصوت ...

فتابعت شفتاه قوله في صوت خافت .

– أشهد أن لا إله إلا الله ..

وأشهد أن محمداً رسول الله .



- « سيصبح تغلق تيمور يوماً ملكاً عظيما . . . فلا تنس أن تذهب اليه ، وتقرئه مـــني السلام . . . ولا تخش أن تذكره بوعده الذي قطعه لي »

وتوقف الشيخ عن كل حركة ... باسماً ، راضيـاً عن عمله ... فقد بذل في سبيل الله كل ما أوتي من طاقة ...

لقد رضي الله تعالى عنه ... فعرض عليه منزلته في الجنة ... فهبت روحه مسارعة إلى ذاك المقام الرفيع ... راكضة الى الفراديس العليا ...

تترنم لسماع قوله تعالى : « يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعي الى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي ، وادخلي جنتي[1] » ..

في حين أن ذلك الجسد الذي كان يقيد الروح ، ويمنعها من العروج ، تخلف على الفراش ، عديم الحركة !!!

. . .

وانكب الابن على جسد والده ... فوجده جـامداً لا حراك فيه ...

فانهمرت من عينه دمعتان سخينتان ...

دمعة الابن على فراق والده ...

ودمعة المريد على فراق شيخه المربي الذي رضع منه لبان الإيمان !!

(١) « سورة الفجر » الآية : ٢٧ : ٣٠ .

وما أحر الدمعة الأخرى !! إنها دمعة لا كالدموع ... إنها دمعة تحرق القلوب ... وتلذع الأفئدة !!

ولكن ... ما الفائدة من هذا البكاء ، وشيخه لم يهيئه لمثل هذا ؟!

لقد انتدبه للمهمات الجسام التي كان ينوء بحملها ... فما على هذا الفتى إلا أن يتابع المسير !!

• • •

ونهض الشيخ رشيد الدين ، وقد صمم على أن يحيي ذكرى والده ، بالسير على نهجه ، وتحقيق أمانيه وآماله ... وعلى وجه الخصوص تحقيق ذاك السر الخطير ، الذي ائتمنه عليه والده ، وهو على فراش الموت !!

• • •

ومضت الأيام سراعاً ... والشيخ رشيد الدين دائب النظر إلى جهة المشرق ... قلبه معلق بالشخص الذي لم يره ، والمكان الذي لايعرف عنه إلا ما سمع من أخبار ضئيلة ...

إنه معلق القلب بـ«تغلق تيمور خان» ، وبمدينة (كاشغر) ..
ولذلك فقد كان في سؤال دائم عن أخبارهما ... لايترك قادماً ولا مظنة خبر إلا ويتجه اليـه بالسؤال ، ليطمئن القلب على من تعلق بهما ..

وهو لايني عن الدعاء ... ليحقق الله المنى ... ويبلغ المرام ...



الساعة المرتقبة

« ولهج لسانه بالشكر لله . . . على أن بلغه مدينة (كاشغر) سالماً ، بعد إذ طال تعلقه بها وبمن فيها من ملك وقواد » .

وما أروع تلك الساعة التي سمع فيها الشيخ رشيد الدين خبر الحرب الخاطفة ، التي شنها « تغلق تيمور خان » على الممالك الصغيرة المنفصله عن مملكة أجداده ... وما أشد فرحة الشيخ حين رأى من تعلق قلبه به عن بعد ، يتقلب من نصر إلى نصر ويتنقل من بلد الى آخر .. حتى استتب له الأمر ، وتحقق له المراد !!

وغمرت الفرحة قلب الشيخ الفتى ، حتى أخذت عليه نفسه ... وخر ساجداً لله، شاكراً مولاه على أن هيأ له الفرصة المواتية ...

وعرف ان ساعة الجد قد أقبلت ... وأن موعد العمل قد حان ...

فحزم متاعه ... وهيأ راحلته ... وودع «مدينة بخارى» كما ودعها من قبله والده« الشيخ جمال الدين» ..

واتجه نحو المشرق . . يقطع الوهاد والهضاب والسهوب الفسيحة ، التي اجتازها والده من قبله ...

لايشد أزره في رحلته هذه إلا همته الوقاده ، وعزيمته التي لاتلين !!

يحدوه الأمل المشرق ، الذي كان يتراءى له في الأفق البعيد ، كلما واجهته الصعوبات !!

• • •

وفي أصيل أحد الأيام ... كانت الشمس ترسل بخيوطها الذهبية متراقصة مع نسمات الأفق ، فيخيل للشيخ رشيد الدين أنها تحييه وتبتسم له ، وكأنما لسان حالها يحثه على متابعة الطريق الذي رسمه له والده الراحل ...

غير أنه لايلبث أن يلحظ شحوب وجه الشمس ... فيرى في ذلك دليلاً على حزنها العميق ، لأن والده لم يظفر بمشاهدة ثمرات جهوده الجبارة التي بذلها من أجل هذا الدين !!!

في أصيل ذلك اليوم الذى كان يرقب الأحداث بعين الزمان الساهرة ... أطل الشيخ «رشيد الدين»، من بعيد ، على

على مدينة (كاشغر) ، كما أطل والده من قبله ... فاستبشر لذلك أيما استبشار ...

ولهج لسانه بالشكر لله .. على أن بلغه مدينة (كاشغر) سالماً ، بعد إذ طال تعلقه بها وبمن فيها من ملك وقواد، سبق لوالده أن التقي بهم ودعاهم إلى الله .

وهو إن فرح لشيء ... فان فرحه لم يكن إلا لأن الله قد شرفه بأن أتاح له فرصة العمل لخدمة هذا «الدين الحق»...

وما عليه إلا أن يشمر عن ساعد الجد ... ويبيع نفسه لله !!



حلم أم سراب

« فلم يستطع أن
يظفر بالمثـــول بين
يدي الخان على الرغم
ما بذله من جهود »

وبينما كانت الشمس تودع المدينة .. كان الشيخ (رشيد الدين) يدخلها ، والآمال العراض تملأ نفسه ... وقد ظن أن الأمر لا يعدو أن يصل الى قصر الملك ، فيتصل به ، ويتحقق المراد . . فيزدهي بأثواب النصر .. ويفرح قلبه برفعة هذا الدين !!

ولكن الأيام القليلة التي أقامها في مدينة (كاشغر) ، بينت له أن المهمة صعبة ... وأن تلك الصروح الضخمة **من** الآمال التي شيدها ، لربما لاتكون أكثر من سراب بقيعه ، **« يحسبه الظمآن ماءً ، حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً »** [١] !

لقد بقي أياماً عديدة يتردد على معسكر الخان . . يحاول الدخول على الملك !!

---

(١) « سورة النور » الآية — ٣٩ — .

ولكن جهوده باءت بالخيبة ... « فلم يستطيع أن يظفر بالمثول بين يدي الخان ، برغم ما بذله من جهود » ... إذ أن الحراس كانوا يمنعونه من الوصول الى مبتغاه !!

ومن عساه يكون هذا الفتى النحيل الذي لايملأ العين منظره؟؟

وماذا يبتغي من الملك ؟؟

لقد صرفوه مرات ومرات ... ثم ردوه رداً قبيحاً منكراً!!

وعاد الشيخ حزيناً ... مكلوم الفؤاد ... يصارع اليأس والقنوط صراع الأبطال !!

وترددت على ذاكرته وصية والده ، وهو على فراش الموت . .

وتراءى له والده كأنماهو يردد عليه عبارته الأخيرة التي أوصاه بها وهو يقول :

« سيصبح تغلق تيمور يوماً ملكاً عظيماً ... فلا تنس أن تذهب اليه ، وتقرئه مني السلام ... ولا تخش أن تذكره بوعده الذي قطعه لي » .

فاتقدت في نفسه الحماسة وقال مخاطباً شخصه بجزم ظاهر وعزيمة لا تلين :

لابد لي من أن أذهب اليه ...

لابد لي من لقائه مهما كانت الظروف !!

لامناص لي من تبليغ سلام والدي وشيخي ...

لامحيد لي عن تذكيره بوعده الذي قطعه على نفسه لوالدي !!

وصمت برهة من الزمن ثم أردف يقول :

–ولكن مـــا العمل ?? إنهم يمنعونني من تحقيق بغيتي ...
ولا أرى أني أستطيع تحقيق هذا اللقاء ، ولو بقيت هنا العمر كله !!

إذن ما العمل ??. لابد من تحقيق وصية والدي الشيخ ...

وراح رشيد الدين يُعمل تفكيره ...

واستغرق طويلاً يتدبر الأمر ثم انصرف يقول :

–نعم .. نعم ... ليس لي غير هذا الطريق ...

ولتكن النتائج ما كانت ... فأمام هذه المهمة الضخمـــة تسهل الصعاب ... وتهون التضحيات !!

وانفتل الشيخ الفتى ينظر حوله هنا وهناك . . وكأنما هو يبحث عن شيء في السماء ...

وما إن رأى مكاناً مرتفعاً قريباً من فسطاط الخان ، حتى

انسل اليه وسط الظلام الحالك ... يغتنم الفرصة ، بعدما نامت أعين الرقباء !!

وصعد الى السطح المرتفع ... فرأى المدينة مـائلة بين يديه ... قد هدأت حركتها ... وخمدت أنوار قناديلهـا ... فإذا هي تبدو وكأنما قد سدرت في أحلام طويلة ...

وأطل على ما تحته ... فإذا هو يرى فسطاط الخان ، قريباً منه . . قد أسدل عليه النوم ستاره ... فلا حركة ولا همس ، غير حركة خفيفة ، كانت تصل إلى أذنيه ضعيفة ، من جراء وقع أقدام ذاك الحارس ، الذي يقف على باب الفسطاط ...

ونظر في السماء ... فإذا هو يرى النجوم وقد أشارت الى مضي ساعات بعد منتصف الليل ...

فاعترته رهبة السكون ... وشعر بوحدانية الحي القيوم ...
واستمد القوة من الذي لاتأخذه سنة ولا نوم ...

وصاح بأعلى صوته :

(الله أكبر الله أكبر ... الله أكبر الله أكبر ...

أشهد أن لا اله الا الله ... أشهد أن لا اله الا الله ...

أشهد أن محمداً رسول الله ... أشهد أن محمداً رسول الله) ...

وما أتم الأذان إلا والجند حوله يجرونه على الأرض ... يكمون فمه بكل ما أوتوا من قوة وفظاظة ... يلكمونه لكمات عاجلة ، يعبرون فيها عن شدة غيظهم وحنقهم ...

• • •

وبينما كان الجند يتراشقون التهم بالتقصير في أداء مهامهم ، كل منهم يلقي على غيره المسؤولية بإفساح المجال أمام هذا (الأبله) بإزعاج ملكهم ... حضر رسل «تيمور خان» ... وطلبوا ذاك الذي قام بهذا الإزعاج الكبير للملك ... فعكر عليه صفو نومه !!

وأخذ الجند غريمهم ... وساقوه أمامهم ... ليمثل بين يدي الملك الذي كان ينتظره على أحر من الجمر، ليطفىء به جام غضبه ...

وأُدخل «الشيخ رشيدالدين» على الخان ... فرأى عينيه تقدحان شرراً لشدة مابه من غيظ ...

غير أن «الشيخ رشيد الدين» استعان بالله . . ولم يبال بكل تلك المفزعات !!

وجابه الموقف برباطة جأش بالغة ... وأنى له أن يخاف وهو الذي عرض نفسه لهذا الموقف ?!!

ولما توجه اليه الخان بالسؤال عن أسباب هـذا الإزعاج الذي بدر منه ... أخبره بأنه لن يجيبه على سؤاله هـذا إلا إذا سمح بأن يخلو به ... لأن لديه شيئاً هاماً يريد أن يفضي به اليه !!

وسرعان ما انفض الجند والاعوان بإشارة من الخان . .

وعند ذلك أقبل الشيخ رشيد الدين على« تيمور »يبلغه رسالة أبيه ...

وبـدأ غيظ «تيمور» يزول تدريجياً لدى سماعه حديث الشيخ ...

بل إن غضبه انقلب إلى رضى وسرور لما علم أن هذا الذي هو ماثل بين يديه إنما هو ابن الشيخ جمال الدين ... ذاك الشيخ الذي أسر لبّه وهو يحدثه عن (الدين الحق)...

وراح الملك «تغلق تيمور» يفكر فيما حدث بينه وبين الشيخ جمال الدين قبل سنوات ثلاث ... يوم أن كان يحلم باستعادة ملك أجداده .

وبعد لحظات من الصمت ... قال لجليسه :

« حقاً ... مازلت أذكر ذلك منذ اعتليت عرش آبائي »

وبعد أن حملق في الشيخ «رشيد الدين» قال :

- « ولكن الشخص الذي قطعتُ له ذلك الوعد لم يحضر من قبل ... والآن فأنت على الرحب والسعة » ...

وأطرق «تغلق تيمور خان » برأسه لحظات ... دارت خلالها الأمور سريعة في ذهنـــه ... الى أن استقر رأيه ... ونهض واقفاً يقول :

- أشهد أن لا اله الا الله . . وأشهد أَن محمـــداً رسول الله ...

« وأصبح مسلماً منذ ذلك الحين » ...

«وأشرقت شمس الإسلام ومحت بنورها ظلام الكفر » ...

وتهلل وجه الشيخ رشيد الدين ... وهو لايكاد يصـدق ما يرى بأم عينيه !!

وسجد شكراً لله ... على أن حقق أمنية أبيه ... ونصر دينه ... وأعز كلمة الإسلام ...

ولكن استغراق «تيمور خان» في التفكير ، أقلق «رشيد الدين» الذي بادره بالسؤال عن سبب ذلك الوجوم الذي اعتراه !!

وكان الجواب البلسمَ الشافي لنفسه ...

ذلك أنه عرف أن الملك إنما يفكر في الوسيلة الناجعة لإقناع أعوانه وقواده بالدخول في الإسلام !!

. . .

وأرسل الملك وراء كبار القواد والأعوان ، ليمثلوا بين يديه ... وأمر جنده أن يدخلوهم عليه واحداً إثر واحد ...

وفي صباح ذلك اليوم الباكر ، كان الشيخ رشيد الدين يجلس عن يمين الملك بانتظار دخول القواد !!

« وكان أول من عرض عليه ـ ذلك ـ الأمير تولك Tulik » ... الذي لم يكد يقول له الخان : « ألا تدخل في الإسلام » ?? حتى « سالت عبراته ... وقال : لقد دخلت في الإسلام منذ ثلاث سنين ... على يد أحد رجال هذا الدين في (كاشغر) .. وأصبحت مسلماً منذ ذلك الحين ... ولكني لم أصرح بذلك خوفاً منك » !!

« فنهض تغلق خان ... وعانقه » .

وفرح الشيخ رشيد الدين ... وتذكر ما أخبره به والده من قيامه بالدعوة بين القواد ، استعداداً لمثل هذه الساعة ... حتى يكونوا عوناً للملك وظهيراً ...

« وهكذا عرض الإسلام على سائر الأمراء ... فقبلوه جميعاً إلا واحداً منهم اسمه جراس Jaras » .

« فقد أبى أن يدخل في هذا الدين ... واقترح عقد امتحان في القوة الجسمانية بين الشيخ وخادمه الذي كان ضخم الجثة ، وقد بلغ من شدة قوته أنه كان يستطيع أن يرفع بيديه جملاً ثنياً (ابن حولين) » !!

وكان هذا الاقتراح مفاجأة أذهلت الحاضرين جميعاً ، فأعجزتهم عن كل تصرف !!

وفي غمرة من هذا الجمود انبرى الشيخ رشيد الدين يعلن عن قبوله التحدي ... وقال مخاطباً الأمير جراس :

— « إذا لم أصرعه ... فلن أطلب إليك أن تدخل في الإسلام ... وإذا قضت إرادة الله أن ينال المغول الشرف ببركة هذا الدين .. فإنه سوف يهب لي ، بلا ريب ، قوة أستطيع بها .. أن أظهر على هذا الرجل » !!

وصحا الحضور من هول الصدمة المفاجئة ... ليروا الشيخ وقد ورط نفسه في قضية ، كانوا يرون فيها خسارته مؤكدة ... كما يرى الانسان الشمس في رائعة النهار ، ليس بينه وبينها سحاب !!

« وحاول تغلق وغيره من الذين اعتنقوا الإسلام جهدهم أن يصرفوا ذلك الشيخ الورع عن تلك المبارزة » ...

« ولكنه أصر على ذلك » ... وأكد استعداده التام ...

غير أنه علق أمر قبوله بهذه المبارزة على توافر شرط واحد ...

فتنفس الملك والحضور الصعداء ... ورأوا أن في هذا الشرط الذي سيذكره الشيخ، مجالاً لانسحاب شريف مما ورط نفسه فيه ...

لذلك أسرعوا في الاستيضاح عن ذلك الشرط !!

وكان الجواب مفاجأة للسائلين ...

إنه لايشترط لهذه المبارزة ... أكثر من أن تعقد في ميدان السباق الكبير ... وأن يدعى الناس لمشاهدتها بأم أعينهم !!

وأُسقط في يد الملك ثانية ... واربدّ وجهه ... ولم

يحر جواباً !!

ووجد أنه لامناص له من عقد هذه المبارزة ... بعد أن باءت بالخيبة جميع جهوده في الحيلولة دون وقوعها ...

واتفق الطرفان على الموعد ...

وأعلن الملك ذلك على الناس ... ودعا الجماهير لمشاهدة صراع غريب من نوعه !!

فالشيخ رشيد الدين رجل نحيف القوام ... ضعيف البنية ... لايعرف المبارزة ولافنونها ... بل لربما لم يتشاجر مع إنسان طوال حياته ... نظراً لما عرف عنه من حلم وسماحة خلق ...

أما خادم الأمير جراس ... فكلهم يعرفون شراسته وغلظة كبده ... هذا بالاضافة إلى ضخامة جثته ومتانة بنيته ويكفيهم معرفة عنه أنه كان يرفع بيديه جملا ابن عامين !! وكم نكل بمن بارزهم تنكيلاً، جعل الناس يشمئزون لدى سماعهم باسمه !!

غير أنه لم يكن بإمكان أحد أن يحول دون وقوع هذا

الأمر ، خصوصاً وأن إصرار الشيخ على قبول التحدي كان يضيع كل فرصة يمكن أن تساعد على تلافي الوضع !!

وأزفت ساعه اللقاء ...

وتجمع الناس من كل حدب وصوب ... في ميدان السباق الكبير !!

وجلس الملك وكبار قواده على منصة قريبة من حلبة المبارزة ...

وأمسك المؤمنون قلوبهم بأيديهم !!

بل إن بعض القادة المتحمسين للشيخ ... راودته الفكرة في أن يلقى بنفسه في حلبة الصراع ، فيبطش بالخادم الجبار.. وكاد ينفذها، لولا أن ذلك سيكون في نظر الناس، خطيئة لاتُغتَفر !! فالمبارزة لها اصول ... ولها حرمتها ... ولايجوز للآخرين أن يتدخلوا في سيرها الحر !!

وقف ذلك الخادم المتوحش في زاوية من زوايا الحلبة ... وقد ظهرت على وجهه أمارات الغضب والغيظ ... فقد كان يزأر زئيراً مخيفاً ... كأنه الوحش الضاري ... يساعده على ذلك صدره المنفوخ ، ورقبته الغليظة !!

وبدا الشيخ في ركن آخر ... هادئاً وديعاً مسالماً ..
لايتحرك إلا برفق وأناة .. على وجهه سيماء الوداعة والأنس !!

وتحسر الحاضرون لهذا اللقاء غير المتكافىء ... وود كثير منهم لو يستطيع أن يحول دون وقوعه .. ولكن الأمر كان خارجاً عن إرادتهم جميعاً ..

وأعلن عن بدء المبارزة ...

فتقدم الخادم العملاق « في غير اكتراث ... اعتزازاً بقوته » في حين أن الشيخ كان شديد الاعتماد على قوة ربه ، قد التجأ اليه ولسان حاله يقول :

اللهم اني أتبرأ من حولي وقوتي

وأعتمد على حولك وقوتك

اللهم بك أصول ...

وبك أجول ...

وبك أدرأ في نحور الجبابرة » .

« ولم يكد يبدأ الصراع بينهما حتى وكز الشيخُ الكافر وكزة قوية في صدره ... فسقط مغشياً عليه » !!

فدهش الحاضرون ... وهبوا جميعاً من مقاعدهم ، يهتفون بحياة الشيخ ويشجعونه ...

● ● ●

وكان أكثر الناس دهشة ذاك الخصم المصارع ... لقد رأى نفسه على الأرض، وما اعتاد أن يُرى في مثل هذا الموقف!! ونظر فلم يجد فيه ألماً يمنعه من المتابعة .. فهب واقفاً ... يريد معاودة المصارعة ، والانتقام لنفسه من هذا الذي جرح كبرياءه .

وانتفض انتفاضة عنيفة ، كأنه الوحش الضاري ، وزأر زئير الأسد في عرينه ...

وحبس الناس أنفاسهم ينظرون ماسيفعله هذا العملاق الضخم ..

ولم يعقب ترقبهم هذا إلا ما أخذ عليهم أنفسهم ؛ «فلم يكد – الخادم العملاق – ينهض [1] حتى سقط على أقدام الشيخ.. وصاح بكلمة الايمان » ... لقد صاح بأعلى صوته يقول :

–أشهد أن لا إله إلا الله ... وأشهد أن محمداً رسول الله .

وارتجت أرجاء الميدان الكبير ... بأصوات الجماهير المحتشدة تقول :

---

(١) وذلك وفقاً لرواية « سير توماس آرنولد » .

ـ الله أكبر ... الله أكبر ...

نشهد أن لا إله إلا الله ... ونشهد أن محمداً رسول الله ...

« وقص ١٦٠ الف رجل شعورهم ... ودخلوا في الإسلام »

« وأخذت الدهشة من الخان كل مأخذ ... وبدد نور الإسلام غياهب الكفر ... وأصبح الدين الإسلامي منذ ذلك الوقت » دين السكان المتحضرين « في الولايات الخاضعة لسلطان خلفاء جغطاي » ...

ورفرفت روح الشيخ جمال الدين ... لتحضر من « بخارى » إلى « كاشغر » ... فتشارك الناس أفراحهم بجني الثمار العظيمة لبذرة الإيمان التي غرسها بيده ... ورعاها بدعواته وابتهالاته ...

فإذا الجميع يشهدون عظمة انتصار « الدين الحق » على أولئك المغول، الذين أذلت جيوشهم الجرارة رقاب من يسمون أنفسهم مسلمين، والإسلام منهم براء ...

وسعد الشيخ جمال الدين ، في رمسه ، بانتصار « الدين الحق » ... ذاك الدين الذي كافح وناضل سنين طويلة من أجله ... يدعو إلى الله ... غير يائس ولا متخاذل ... مؤتمراً بأمر الله في كتابه الكريم :

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة »[1] .

واطمأنت روح الشيخ جمال الدين الى أن الإسلام – على الرغم من هزيمة المسلمين الشنعاء – لايزال يملك من القوة على الصمود ومقومات النصر أكثر مما يملك أعداؤه من قوة على الفتح والتدمير .

• • •

وطار النبأ إلى صحب الشيخ « جمال الدين » الذين حضروا الجولة الأولى من الصراع الفكري الطويل ، فلم يفقهوا لها مغزى .. فطاروا لذلك فرحاً ... ذلك أن لهم سهماً كبيراً في هذا النصر المبين ، الذي أراد المولى سبحانه أن يتم تحقيقه على يد الشيخ « رشيد الدين » ...

لقد غمرتهم الفرحة الكبرى ، وكأنما قد تحقق النصر على يد كل واحد منهم ... فهم جميعاً يعملون من أجل فكرة

---

(١) « سورة النحل » الآية – ١٢٥ – .

واحدة ، لايهمهم أن تتحقق على يد أي كان ... بل إن كلاً منهم ، يود مخلصاً ، ومن أعماق قلبه ، أن يتحمل هو كل مشقة في سبيل الله ، ويؤثر أخاه بكل نصر يمكن تحقيقه .

المهم لديهم أن يتحقق انتصار الدين الحق ...

وهاهم أولاء جميعاً يعيشون اليوم ساعة من أغلى ساعات العمر ... ساعة انتصار الاسلام الأعزل على « المغول » أولي القوة والبأس !!



هل قرأت للمؤلف كتاب : « النحلة تسبح الله »

- الكتاب الذي تناولته بالدراسة المجلات والإذاعات العالمية .
- الكتاب الذي عدته مجلة (Bee World) الانكليزية أحد المراجع العالمية ، الأكثر علميه وفنية (The more technical)
- الكتاب الذي يظهر التوافق الكبير بين العلم والدين .

فيه تأخذ بيدك إحدى النحلات ، لتخوض معك غمار خليتها ، فتقوم بدراسه علمية للنحلة : طباعها وتصرفاتها ، ولغـة تخاطبها ، وطريقة إنجاز الأعمال في مملكتها ، وأسلوب الحكم لديها ، وكيفية صنعها العسل ، وما أودعه الله في العسل من خواص الشفاء ..

يتخلل ذلك كله لفتات نحو اليـد الخفية ، التي أتقنت الصنع وأبدعت في الترتيب والتنسيق ...

كما يجري بين ثنايا هذا البحث العلمي المستفيض ، مقارنة دقيقة بين آراء العديد من كبار العلماء المجلين في مضمار العلم ، وبين معطيات الدين الحنيف ...

وخلال ذلك ... يستمتع القارىء الكريم ، بين الفينة والأخرى ، بسبحات روحية ، مع العديـــد من الشعراء ، الذين عبروا عن مشاعرهم ، فسبحوا الخالق الموجد المبدع ، الذي أوجد النحلة ، وأبدع في كل شيء في الوجود .

هل قرأت سلسلة (قصص من التاريخ)

١ ـ فاين الله : مجموعة من القصص القصيرة تروي :

★ صيحة « عبد الله بن عمر » في جوف الصحراء .

★ إسلام الدكتور « كراين » الأمريكي الجنسية .

★ إيثار الإمام « الواقدي » وإخوانه .

★ الشيخ « عبد القادر » ... رجل العلم والتقوى .

٢ ـ الايمان ... والزنزانة المتجولة قصة « كعب بن مالك » رضي الله تعالى عنه ... وهو يروي لنا الصراع العنيف الذي دار في نفسه وهو في سجنه الغريب من نوعه ... ذاك السجن الذي أودعه فيه رسول الله ﷺ مدة خمسين يوماً .

٣ ـ أم .. لا كالأمهات : تروي لك قصة البطولة الحقيقية في :

★ أم . . عملت على إعداد ولدها ، فكان أستاذ الإمام مالك .

★ أب ... جاهدخلال ٢٨ عاماً متواصلة لم يعد خلالها إلى أهله .

★ ابن .. طلب العلم حتى صار مفتي المدينة المنورة غير منازع .

شكر واعتذار

أتقدم بالشكر الجزيل ، لكل من غمرني بلطفه وفضله فحمّل نفسه عناء المراسلة ، فاتصل بنا ، وأبدى أشياء إنما تنطق بما في نفسه من الفضل .

كما أشكر أولئك الذين أبدوا ملاحظاتهم القيمة ، وآراءهم السديدة .

وأعتذر من كل الذين دفعهم إيمانهم ، إلى أن يضعوا أنفسهم في مكان رفاق « الشيخ جمال الدين » آملين أن تتاح لهم الفرصة المناسبة ... أعتذر منهم لما بدر منا في غياب هؤلاء المريدين عن جني ثمار النصر الذي أحرزه الابن « الشيخ رشيد الدين » الأمر الذي حملنا على استدراكه في هذه الطبعة .

ومهما يكن من امر ، فإنني أعتقد جازماً أننا لم نصل ، ولن نصل الى درجة الكمال ... بل علينا دوماً ان نسعى الى ذلك الهدف السامي النبيل ... وأكبر زوّادة انا في هذا السبيل ملاحظات الإخوة المؤمنين التي يقدمونها الينا بدافع من غيرتهم وإخلاصهم

محمد حسن الحمصي

الفهرست